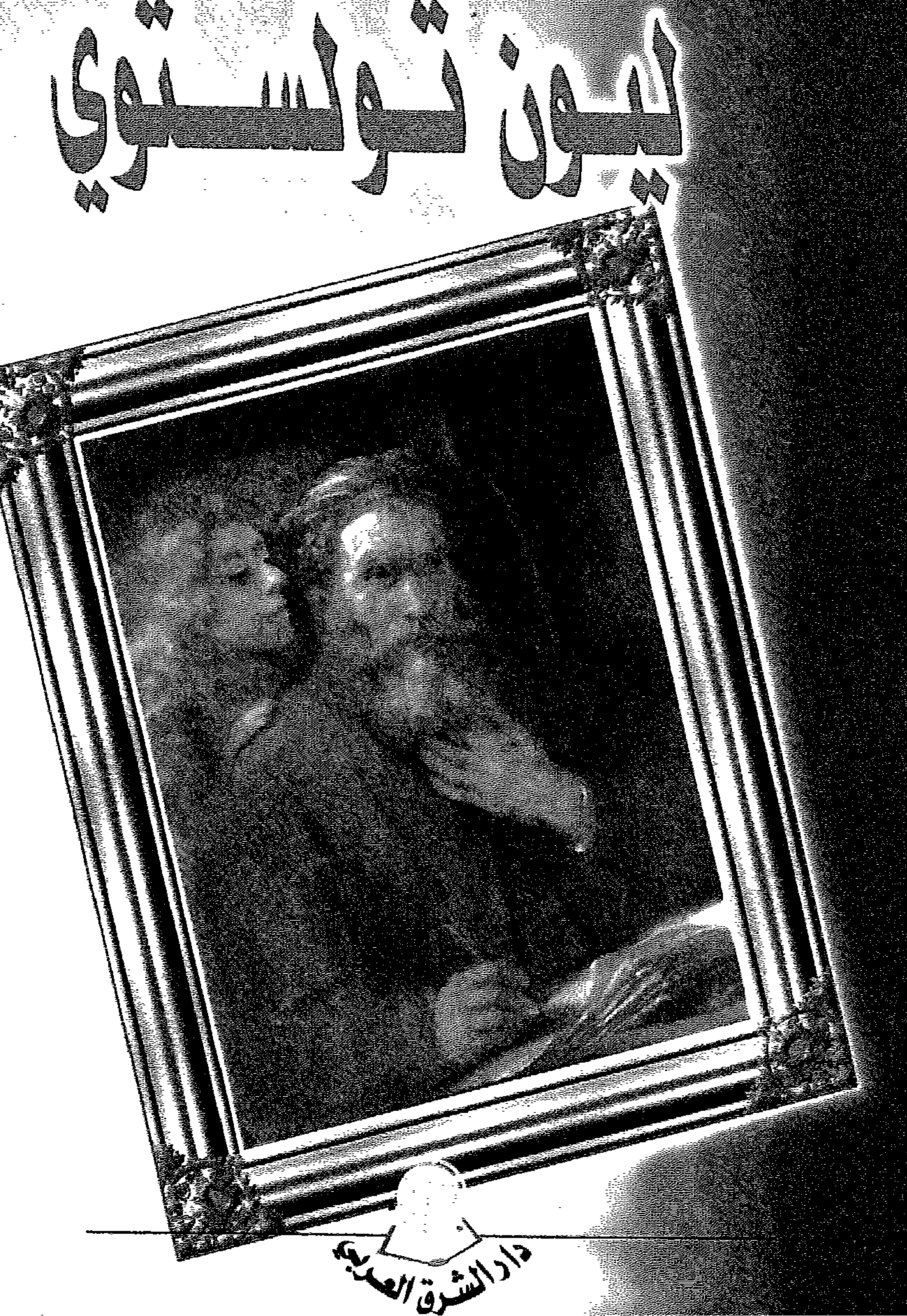
أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

ليون تولستوي



ليون تولستوي

1828 ـ 1910 م

1

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبــــر | 2 ـ هنيبَعـــــــل
3 ـ أبو العـــلاء المعــرّي | 4 ـ ابـــنُ بطّوطـــــة
5 ـ ابـــنُ خلـــــدون | 6 ـ كريسْتوف كولومبوس
7 ـ وليَــم شكسْـــــبير | 8 ـ نـابوليون بُونـــابرت
9 ـ ليــون تُولسْـتــوي | 10 ـ المهاتما غانْـــــدي

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعـــلام مـــبـــرزون

من الشرق والغرب

ليون تولستوي

1828 ـــ 1910م

دار الشرق العربي

حلـــب ســـوريـــة ـ ص.ب:415

بيروت لبنان ـ ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
حلب ــ سورية ــ ص.ب: 415

الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ
الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ
الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبـع فـي : المطبعة الحديثة ـ حلب

المقدمة

يُعدُّ **تولستوي** مــــن كِبـــار أعــلامِ الدُّنيـــا المبرِّزين العباقِرةِ الخالدينَ، بما خلَّفَ للإنســـانيةِ من تُراثٍ فنيٍّ قصَصيٍّ، ومؤلَّفاتٍ فكْريَّةٍ ودينيَّةٍ، هي دونَ ريْبٍ من روائِعِ الآثارِ التــــي تضمــنُ لصاحِبِها البقاء والشُّهرةَ والخُلودَ، أمَّـــا كفاحُــهُ الطويلُ للقضاء على الظُّلْمِ، وتحقيقِ المحبَّةِ بيــن الناسِ، وعدمِ مقابَلةِ العُنْفِ بـــالعُنْفِ، ونضالُـــهُ البطوليُّ المُستَميتُ ليردَّ إلى المسيحيَّةِ بســـاطتَها الأولى، ويدفعَ الحاكمين في روسية إلى الالــتزامِ بِتعاليمِ المسيحِ في الحُبِّ والتَّسامُحِ والسَّلامِ، أمَّـــا كفاحُهُ الطويلُ هذا فقدْ جعلَ منهُ أعظَمَ رجلٍ فـــي عَصْرِهِ، حتّى عُدَّ **"رجُلَ العالَمِ"** و **"نبيَّ العصْــرِ"**

و"**عبقريٍّ روسية الأعْظَمَ في القرْنِ التاسِعِ عشر**" وحَكَم النقادُ بأنَّ لأفْكارِه وتعاليمِهِ أكبرَ الأثرِ في انْفِجارِ الثورةِ الاشتراكيَّةِ الكُبْرى في وطنِهِ، بعدَ سبْعِ سَنواتٍ من وفاتِهِ، وكان قد **تنبأ باندِلاعِ الثورةِ فوْقَ الأرْضِ الروسيَّةِ**، مُحاوِلاً أنْ يوقظَ الضمائرَ الغافيةَ على حقيقةِ الوضْعِ الاجتماعيِّ المُظْلِمِ في بلادِهِ، مُندِّداً بالفَسادِ والظُّلْمِ، ومُتصدِّياً بكُلِّ شجاعةٍ وتحدٍّ للاستبدادِ الطويلِ، في روسيةَ المقْهورةِ تحتَ ليلِ القيصريَّةِ الأسْودِ.

وفي الصَّفحاتِ التاليَّةِ نحاولُ تقديم **موجزٍ لسيرة هذا العبقريِّ المُبرِّزِ الفنّانِ المُفكِّرِ المُناضِلِ**، في مراحلِ حياتِهِ وكِفاحِهِ، خلال

عُمرِهِ المديدِ، إلى أن يقضي نحبَـــهُ فـــي نهايـــة العشر الأوَّلِ من القرنِ العشرين، وقـــد جـــاوز الثمانينَ منْ حياتِهِ الخِصبـــةِ والغنيَّـــةِ بالإنتـــاجِ والعطاءِ والنِّضالِ.

الباب الأول

روسيّةُ القيصريَّةُ في عهد تولستوي

1

أقْبَلَ فجرُ القرنِ التاسعَ عشرَ على أورُبّـــــةَ وروسِيَّةُ ما تزالُ تعيشُ في الظلامِ، تحت حُكْـــمِ ليلِ القياصِرةِ الطويلِ، فكانَ خَمسونَ مليوناً مـــن الزُرَّاعِ والفلاحينَ فيها عَبيداً للقَيْصَـــرِ ومُـــلاّكَ الأرضِ من النُبلاءِ ورجالِ الكنيسّةِ، **وقد أسْهمَتْ حمْلةُ نابوليون الفاشِلةُ على روسيةَ في إيقـــاظِ النائمينَ على الجَوْرِ والعبوديَّةِ**، ولكنَّ القَضــــاءَ على نابوليونَ عزَّزَ مكانَةَ القيْصَــــرِ، **الإسْــكَندرِ**

الأولِ، فظلَّ دُعاةُ الحُريَّةِ إلى نِهايةِ الرُبْــعِ الأوَّلِ من القرْنِ يترَقَّبون عبثاً انحِسارَ الظَّــلامِ! وفــي عامِ 1825 تولَّى **نيقولا الأوّلُ** عرشَ القيــاصِرةِ، بعدَ وفاةِ أبيهِ، فنشِطَتْ مُقاومةُ القيصرِ الجديــدِ، وكانَ صارِمــاً قاســياً، **فقضــى علــى حركــةِ المُتمرِّدينَ** بعُنْــفٍ وقســوةٍ (وتُعْــرفُ بحركــةِ **الديسمبريين**، لقيامِها فــي ديســمبر ـ كــانون الأول ـ 1825) **ولقيَ كثيرٌ من أفْرادِ الجمعيات السرِّيَّة حُتوفهُمْ**، وبسَطَ القيصرُ رقابتهُ على كُــلِّ ما يُنشرُ، وظنَّ أنَّهُ قد قضى على كُلِّ ميلٍ إلـــى الحُرّيّةِ، عن طريقِ أعْوانِهِ وزبانيَتِهِ من رجــالِ الشُّرْطةِ السِّريةِ، ولكنَّ العاصِفةَ ظلَّتْ ثائرة فــي القُلوبِ، تترقَّبُ الفُــرَصَ السانِحةَ للظُّــهورِ،

وجاءتِ الفُرْصةُ مع (حربِ القَرْمِ) عـــام 1853 حين أصبحتْ جيوشُ انكلترة وفرنسة وتركيـــةَ تُحاصرُ جيشَ القيْصــــر، وهُـــوَ عـــاجزٌ عــنِ الصُّمودِ، وأدْركَ القيصرُ أنَّ شعبَهُ المقهورَ قـــدْ فقَدَ حماستَهُ لهُ، وأنَّ النقمةَ تغلي في الصُّـــدورِ، وقد عبَّرَ الناقِمونَ عنْ غضبِهِمْ في المنشـــوراتِ السريَّةِ السَّاخِرةِ التي كان الشعبُ يتداولُها وجـــاءَ في واحِدٍ منها:

"يقولُ القيْصرُ: لقد جعلني اللهُ حيـــثُ أنـــا مُهيْمِناً على روسيةَ، فعليْكُمْ أن تنْحنُوا راكعيـــنَ أمامي، فإنَّ عرشي هُو كُرسيُّهُ، ولا تُعَنُّوا أنفسكُم بالمَصالحِ العامَّةِ، فإنِّي أفكرُ من أجلِكمْ، وما أنـــا

في حاجةٍ إلى من يُشيرُ عليَّ، فـإنَّ الله يُلهمُني الحِكمةَ، فافخَروا أيُّها الروس بأنَّكُمْ عبيدي.

ولقَدْ أنْصتْنا نحنُ معشرَ الروسِ إلى هذهِ الكلِماتِ في خُشوعٍ عميقٍ، وسلّمنا بِها طائعينَ، فماذا كانتِ العاقِبةُ؟

ها نحنُ أولاء ـــ واأسفاهْ ـــ قد أخِذْنا على غرّةٍ، وأحيطَ بِنا ونحنُ غافِلونَ.. **أفيقي يا روسية! التهمكِ الأجانِبُ من أعدائكِ، وحطَّمتْكِ العبوديّةُ، أفيقي من نومِكِ الطَّويلِ، وقِفي ثانيةً هادِئةً أمامَ عرْشِ الطاغيةِ،** واسْأليهِ أنْ يُقدّم لكِ اليومَ حِساباً عن الكارِثةِ القوميةِ!"

وعِنْدما سقطَ حِصْنُ سباستبول اهتزَّ عـرشُ القيصرِ، وقضى نيقولا الأولُ نحبهُ بعد ثلاثيـن عاماً من حُكْمِهِ الأسودِ المُظْلِمِ.

ووليَ **الإسكندرُ الثاني** العرشَ سـنة 1855 وكانَ ذا نزعةٍ إنْسانيةٍ ورغبَـةٍ صادقـةٍ فـي الإصْلاحِ، فعفا عمَّنْ بقِيَ حياً من المَحْكومين مِنَ المتمرِّدينَ الديسمبريين، وسـمَحَ بنصيـبٍ مـن حُرِّيَةِ النشْرِ، وأقدَمَ على تحريرِ رقيـقِ الأرْضِ عام 1861، وهذا أجلُّ عملٍ في إصْلاحاتِهِ. غيرَ أنَّ حماسةَ الإسكندرِ الثاني للإصْـلاحِ أخـذتْ تفتُرُ، لِمَا رأى من ثورةِ البُولنديين، ولخوْفِهِ مـن تقلُّصِ سُلْطتِهِ الفرديّةِ أمامَ مُطالبةِ الشعبِ كلِّـهِ، بإقامَةِ نظامٍ تمثيليٍّ نيابيٍّ، وكانَ المستنيرونَ مـن

رجالِ الأدبِ والثّقافةِ والصَّحافَةِ والفَلْسفَةِ يدعونَ إلى التخلي عنِ **التقاليدِ الباليةِ العتيقةِ**، ويريدونَ أنْ تأخُذَ روسيةُ الطريقَ الذي سلكتْهُ أوربةُ في الفِكْرِ والحضارةِ، لِتُصبِحَ دولةً حديثةً وتحقّقَ مثلَ ما حقّقَهُ الغربيونَ مِنْ مظاهِرِ التقدُّمِ المادّيِّ المُتواصِلِ. ومن صُفوفِ هؤُلاءِ المثّقفين المُستَنيرين **ظهرَ حزبٌ ناقِمٌ ثائرٌ على كُلِّ شيءٍ**، يُمثّلُ السلبيةَ المُطلقةَ، ويدعو إلى التحرُّرِ من الماضي، والتخلّصِ من كُلِّ عاطِفةٍ وعُرْفٍ وتقليدٍ، لأنّ ذلك هوَ ما يستعبدُ عقولَ البشرِ ويمنعهُمْ عَن التقدُّمِ، **ووجدَ هذا الحزبُ الفوضويُّ رواجاً لأفْكارِهِ في أوساطِ الشّبابِ**. وكانتْ جماعاتٌ أخرى في روسية قد انتهى بها اليأسُ

إلى اللجوءِ إلى **العُنفِ واغتِيالِ رجـــالِ السُّــلطةِ** من أعْوانِ القيْصــــرَ، وهكـــذا أصبـــحَ العُنــفُ والاغتيالُ وســـيلةَ جماعـــاتٍ كثـــيرةٍ لموجهَـــةِ الاضطِـــهادِ والإرْهـــابِ الحكومـــيِّ، **وتعـــدَّدتْ المحاولاتُ لاغتِيالِ القَيْصرِ نفْسِهِ**، بعدَ أنْ أصبح ينفِرُ من الإصْلاحِ ويعُدُّه طريقاً إلى الفوْضــــى، وأقام القيصرُ حُكماً عسْكرياً في أقاليمِ روســـيةَ، وأصبحتِ الفِتَنُ والقلاقِلُ تتكرّرُ فـــــي شـــوارِعِ موسكو وبطرســـبورغ، وصـــارتِ الجماعـــاتُ السريةُ تغتالُ أعوانَ الحكومـــةِ والقيصـــرِ فـــي وضحِ النّهارِ، وأحسَّ الإسكندرُ الثاني بـــالخطرِ، فأراد أنْ يحتكمَ إلى مجالِسَ المُقاطعاتِ، فلم تجـدْ هذهِ عِلاجاً للوضْعِ بغيْرِ إعْطاءِ الشـــعبِ حُريَّـــةِ

الرأي والفكرِ، فلا يُمكنُ أن تُعرفَ شكاوى النَّاسِ إلاّ إذا أتيحتْ لهُمْ حُرِّيّــــةُ التعْبــيرِ عــنْ تِلــك الشكاوى! والإسكندرُ الثاني لايمكنُ أن يرضـــى بِهذا العلاجِ، فهُوَ طاغيةٌ ولا يتنازلُ طاغيةٌ عــن سُلْطانِهِ باخْتيارِهِ!

ولِهذا كانَ لابُدَّ لمحاولاتِ اغتيالِ الطاغيـــةِ أن تتكرَّر، وإذا لمْ ينجحْ بعضُها، فقـــدْ نجحـتْ آخرُ تلكَ المحاولاتِ بإلقاءِ قُنبلتَيْنِ على موكِبــهِ، **فخرَّ الطاغيّةُ على الأرْضِ بدِمائهِ،** في يومٍ مـــن أيام آذار 1881، **وأعْلن الثائِرونَ أنَّهُمْ لنْ يكفّـوا عن العُنفِ حتـــى تتحقّقَ مطالِبُـهُمْ بـــإطْلاقِ**

الحرياتِ للصحافةِ والاجتماعاتِ وإقامةِ مجلـــسٍ وطنيٍّ يُنتخبُ أعضاؤهُ بالاقتراعِ العامِّ!

ولكنِّ ليلَ روسية ما يزالُ مُظْلِماً، والفجـــرُ بعيدٌ بعيدٌ!

2

وتولّى **الإسكندرُ الثالثُ** عرشَ القياصِرةِ بعدَ اغْتيالِ أبيهِ، وبدأ **عهدَهُ بتنفيذِ أحْكـــامِ الإعْــدامِ بالقتلةِ والمتآمرين** مِنْهُمْ، وكان القيصرُ الجديـــدُ جاداً في ملاحقةِ الأحْرارِ والتشْديدِ على رِجـــالِ القلمِ والفِكْرِ، لكبْتِ موْجةِ الحريةِ والقضاء علـــى دُعاتِها، وشدَّدَ من ضغْطِ الرقابةِ على الجامِعـــاتِ والمدارِسِ الثانويةِ ومنـــاهِجِ التعليـــمِ، وأعْطـــى لمالكي الأرضِ سُلطة الحكمِ بينَ منْ يعملونَ فـــي أمْلاكِهِمْ مِنَ الفلاّحين، فعادَ الإقْطاعُ إلى مظْـــهرِهِ الوحْشيِّ، وأصبحَ القيصرُ في عُزْلةٍ عنْ شـــعبِهِ المقهورِ.

وخلفَ الإسكندرُ الثالثُ بعـــدَ وفاتِـــهِ عـــام 1894 ابنُهُ **نيقولا الثاني**، وتـــابعَ السـيْرَ علـــى سياسة أبيهِ، في التنكْيـــلِ بـــالفوضويّين ودُعـــاةِ الحريةِ. ولم يلبثْ هؤلاء أن أدركوا عُقْمَ سِـــلاحِ الاغْتيال لخُضوعِ الفلاّحيـــنَ خُضوعـــاً أعمـــى للقيصريّةِ واستبدادها، في حين أنَّ المســـتنيرين المتعلمين قِلَّةٌ مُتفرقةُ الأهواءِ!

ولكنَّ قُوّة جديدَة تظهرُ في روسية فتفْعَلُ ما لمْ يستطِعِ الفوضويُّون أن يفعلُـــوه: **تلـــكَ هـــي الصناعةُ**، وقد أدّى إنْشاء المصانِعِ إلى ظُـــهورِ **الطبقةِ الوُسطى** التي أصبحتْ تتعلَّـــمُ وتغتنَـــي وترفُضُ أن تُستعْبَدَ، وأقبلَ العُمالُ من المَـــزارِعِ

على المصانِعِ، ليعْملــــوا جماعـــاتٍ جماعـــات، وبدأتْ تلك الجماعاتُ تستيْقظُ، وتشعرُ بالإرْهــاقِ والظُلْمِ، فينْشأ التمرُّد في النفُّوسِ، وتحتَ تـــأثيرِ هذهِ العواملِ الاقتصاديَّةِ الجديــدةِ **ينشــأ حــزبٌ ثوريٌ هو الحزبُ الاشتراكيٌّ الديموقراطيٌّ** الــذي يرى أنَّ النِظـــامَ النيـــابيَّ لا يكْفـــي للإصْـــلاحِ المنشودِ، **فلا بُدَّ منْ ثورةٍ سياسيةٍ عارمةٍ تقْلــبُ الوضْعَ القائِمَ كلَّه**؛ وقد نشِطتْ دعوةُ هذا الحزبِ في صفوفِ العُمَّالِ، وأعلَنَ أنّهُ ينبِذُ فِكْرةَ العُنْــفِ والاغْتِيالِ، وراحَ ينشُرُ مبادِئهِ الاشـــتراكيَّةِ فـــي انتِظارِ الوقْتِ المناسِبِ لتفْجيرِ الثَّوْرةِ.

والحقُّ أنَّ العنْفَ لم يلبثْ أن جاء من جهـــةٍ أُخرى، ففي الجامِعاتِ كانَ الطُّلابُ يُعانون مـــن

التضْييقِ، وأصبَحتِ الجامعـــاتُ أهــمَّ المراكِــزِ السياسيَّةِ في روسية يومذاك، وحـــصَلَ تمــردٌ كبيرٌ في أوْساطِ الطلبةِ بجامعةِ بطرسبورغ فـــي عامِ 1899، وفي عام 1901 اغتالَ أحدُ الطـــلابِ وزيرَ المعارفِ لأنَّهُ أمرَ بـــالقَبْضِ علـــى نحْـــوِ مائتيْ طالبٍ منْ جامعتي كييفَ وبطرسبورغ، وقدْ ألحقوا بالخِدمةِ العسكريةِ عِقاباً لهُمْ على اشـــتغالِهِمْ بالسِّياسةِ، وحصَلَ تقاربٌ بينَ الطُّـــلابِ والعُمـــالِ لمواجهَةِ اضطِهادِ الحكومةِ واســـتبْدادِها، وهكـــذا كانتْ روسيةُ في مطلعِ القرنِ العشرينَ تضطـــربُ فيها النُّفوسُ بالثورةِ على طُغْيانِ القيْصريَّةِ.

وجاءتِ الحربُ الروســـيةُ اليابانيـــةُ عـــام 1904 لتفْضحَ عجْزَ الحكومـــةِ والجيْشِ عـــن

الصُّمودِ، فاشتدَّ السُّخْطُ علـــى القيْصريَّــةِ وراحَ الاشتراكيُّون الديموقراطيون يؤلبونَ أنصــارَهُمْ، **وظهرتْ بوادرُ الثورةِ العاتيةِ بمصْــرعِ وزيــرِ الداخليَّةِ**، وتداعتْ مجالسُ المقاطعاتِ إلى مُؤتمرٍ حضرهُ مائةُ عُضْوٍ، وأعلنوا فيهِ **أنَّ البلادَ تطلبُ الحريَّاتِ العامَّةِ على القاعِدةِ الدستوريةِ**، كمـــا تُطالِبُ بالإصْلاحِ، وبدعْوةِ جمعيةٍ وطنيةٍ لوضْـعِ دُستورٍ يضمنُ تحقيقَ مطالِب الشَّــعْبِ، وهبَّــتِ المُظاهراتُ في كلِّ بلدٍ لتأييدِ مطـــالِب المُؤتمَـرِ وقراراتِهِ، وكان آخرَ تلكَ المُظاهراتِ **مظـــاهرة عُماليَّةٌ ضخْمةٌ تزيدُ على مائتيْ ألـــفِ عــامِلٍ**، تركُوا مصانِعهُمْ في بطرسبورغ، واتَّجَهوا يـــوم

الأحَدِ في التاسِعِ من كانونِ الثـــاني 1905 إلـــى قصْرِ القيْصرِ، في مسيرةٍ سِلْميةٍ، ومعهُمْ نساؤهُمْ وأولادُهُمْ، وقد حملَوا الصُلْبانَ والراياتِ، وعِنْدما بلغوا وسْطَ المدينةِ بُوغِتوا بالرَصاصِ، يُطلقُـــهُ عليهم الجندُ، فيسقُطُ عددٌ كبـــيرٌ مـــن القتلـــى، ويتفرقُ الباقُونَ، وهكذا **دفَعَ الشعبُ الروسيُّ فـــي يومِ الأحدِ الدَّامي مَهْرَ الحُريَّةِ من دِمائهِ الزكيَّةِ،** وبدأتِ القطيعةُ بينَ الشعْبِ والقيْصريَّةِ، وانْطلقتِ الثورةُ ترفعُ الراياتِ الحُمرِ، وكثُرتِ الاغتيالاتُ، حتى كانَ عمٌّ القيصرِ بينَ من اغتيلوا في تلـــك الأيامِ السوداء، **وعِنْدما رأى القيصـــرُ إصْـــرارَ الشَّعْبِ على نيلِ حريتِهِ لمْ يجِدْ بُدّاً من الإذْعانِ،**

وإجابَةِ مطالبِ الشعْبِ الثائِرِ، فأعْلنَ في اليـــومِ السابِعِ منْ تشرينَ الأوَّلِ 1905 **قبُولَ الدُّســـتورِ وإقامةِ الحُكْمِ النيابيِّ.**

وعِنْدما اجْتمعَ المجلسُ البرلمـــانيُّ الجديــدُ (الدوما) في أيارَ 1906 كـــانتْ أكثريتُـــهُ مـــن الاشتراكيِّين الديموقراطيينَ الذين راحُوا يُطالِبونَ بتوزيعٍ عادلٍ للثرواتِ، بعْدَ انتِزاعِها من أيْـــدي كِبارِ المالكينَ، ولكنَّ رئيسَ الحكومةِ **(ستوليبين) كان للمجْلسِ بالمِرصادِ، وقد تريَّث حتَّى هـــدأتِ النُّفوسُ، ثم أعلنَ بعد 72 يوماً حلَّ المجلسِ فلم يُحرِّكْ أحدٌ ساكِناً، وبدأ في روسيةَ عهدٌ مُظلِـــمٌ حالِك، على يدِ السفَّاحِ ستوليبين،** إذ تمَّ إزْهـــاقُ

أرْواحِ الآلافِ دونَ حِسابٍ، وغصّتِ السُّــــجونُ بآلافِ المُعْتقِلينَ، وأرْسِلَ إلـــى المنفْـــى مِئـــاتُ الآلافِ، **واستمرَّ هذا الليلُ الحالِكُ حتى مصْــرعِ ستوليبين** برصاصةٍ اغتالتْهُ عام 1911 في مدينةِ كييف، والشعْبُ الروسيُّ في انتِظارِ فجرِ الحريّةِ القريبِ.

* * *

قدّمْنا هذا العرْضَ السَّريعَ للتاريخِ السِّياســيِّ لروسيةِ القيصريّةِ في عصرِ تولستوي، لكيْ يُنيرُ لنا مراحِلِ حياةِ الكاتِبِ المُفكِّرِ العظيمِ خلالَ هــذا العصْرِ الطّويلِ: **فقدْ وُلِدَ ليونُ تولتســـوي فـــي عهْدِ نيقولا الأول** وأمْضــــى طفولتـــهُ ونشـــأتَهُ

وتحصيلهُ الجامعيَّ وخدمتهُ العسكريَّة في ظــــلِّ حكمِ هذا القيصرِ، ثم تفتَّقَتْ عبقريَّتُهُ ووصلَ إلــى أوْجِ إنتاجِهِ الروائيِّ في عهْدِ **الإسكندرِ الثــــاني**، وعندَ تولِّي **الإسكندرِ الثالث** عـــرشَ القيصريَّـــةِ كانتْ شخصيةُ تولتسوي بعْد دراســـاتهِ الدينيـــةِ والفِكريةِ قد حقَّقَتْ تطوُّراً ذاتياً عميقاً، وأصبحتْ لهُ مِنْ بعدُ رسالةٌ كبيرةٌ ظلَّ يُبشِّرُ بها في عـــهْدِ الإسكنْدرِ الثالثِ وعهدِ ابنهِ **نيقولا الثّاني**، وقضى نحبَهُ في ظِلِّ حكمِ القيْصَرِ الأخيرِ، وهكذا نجِـــدُ **تولستويَ يُعاصِرُ أرْبعةً مِنَ القياصِرةِ من أســـرةِ رومانوف، ويمُوتُ قبلَ سبعِ سَنواتٍ من انْطِلاقِ الثورةِ الاشتراكيَّةِ الكُبرى، ولكنَّهُ كـــانَ بحــقٍّ**

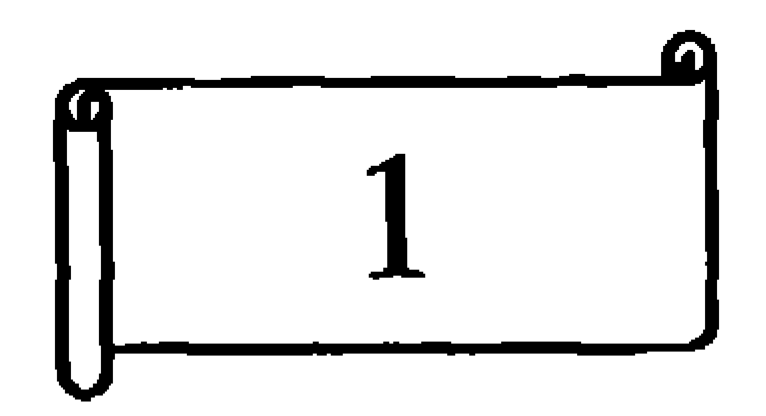
رائِداً ومُمهِّداً وأباً لها، وقد آن لنا أنْ نُرافِقَهُ فــي مراحِلِ حياتِهِ الطويلةِ وكِفاحِهِ البُطوليٍّ في سـبيلِ رسالتِهِ العظيمةِ.

الباب الثاني

من الطُّفولةِ إلى الشبابِ

النشأةُ والتكوينُ

1827 ــ 1855 م



تنحدِرُ أسرةُ تولستوي من أصولٍ ألمانيــةٍ، فقد هاجَرَ جدُّهُ البعيدُ من أوكْرانيا فـــي القــرنِ الرابِعَ عشرِ إلى موسكو، **وبلغ أحدُ أجدادِهِ أرفعَ المناصِبِ** في عهْدِ القيْصــــرِ العظيــمِ بطــرُس الأكبر، فمُنِحَ الكثيرَ من الضَّيــاعِ والأراضـــي،

وأُعطي لقبَ (كونـت) الـذي أصبـحَ أحفـادُهُ يتوارثُونَهُ جيلاً بعد جيلٍ.

أمّا جدُّهُ الأخيرُ (إليا تولستوي) فقـدْ كـان ماجِناً مستَهتِراً، بدَّدَ الثروةَ الكبيرةَ التي ورِثَـها، كما بدَّد ثرْوة زوجتِهِ الغنيةِ أيضاً، مـنْ جرّاء تبْذيرهِ وإسرافِهِ، فاضْطُرَّ إلى قُبولِ وظيفةِ حـاكِمٍ لمدينةِ قازان، فانتقلَ بأُسرتِهِ إليْها.

كانتْ أمُّ تولستوي امرأة مثقَّفـةً تتحـدَّثُ خمْس لُغاتٍ وتجيدُ العزْفَ على البيانو، وكـانتْ تُجيدُ سرْدَ الحكاياتِ والقصَص بأسلوبٍ أخّـاذٍ، وقدْ حملتْ إلى زوجِها ثرْوة قَوامُها 800 عبدٍ مع ضيعةِ (ياسنايا بوليانا) الجميلةِ، التي تقـعُ فـي

ولاية (**تولا**) على بعد 130 ميلا من مدينة **موسكو**، وفي القصر الأنيق القائم على مرتفع من الأرض في تلك الضيعة، بجناحيه العظيمين وأخشابه الزاهية اللون، ولد ليون تولستوي في 28 آب 1828 **فكان رابع ثلاثة من إخوته هم**: (**نيقولا**)، أخوه الأكبر، و (**سيرجي**) و(**ديمتري**)، وقد شاء القدر أن يسلب هؤلاء الأخوة الأربعة الصغار وأختهم (**ماري**) أمهم البارة الحنون، فماتت عنهم، وليون الصغير دون الثانية بقليل، وشاء القدر أن يعوض الأطفال الصغار عن أمهم بإمرأة عظيمة هي مثال نادر في التضحية والإخلاص، واسمها (**تاتيانا برجولسكي**) وكانت

وُلدتْ يتيمةً فعُنيَ بها جدٌّ تولستوي (إليا) وكفِلها، فنشأتْ في بيْتِهِ، وأحبَّتْ (نيقولا) والدَ تولستوي حُبّاً صادِقاً نزيْهاً، وتعمَّدتْ ألا تتزوّجهُ لتُتيحَ لهُ الزَّواجَ من امرأةٍ غنيَّةٍ، فلمّا تُوفيتْ أمُّ ليونَ، عادَ نيقولا إلى طلبِ يدِها، فاعْتذرتْ وآثرتْ أنْ يظلَّ حُبُّها لهُ روحانياً مُستديماً، ورضِيتْ أن تعيشَ معَ أطْفالِهِ الخمْسةِ، تُربِّيهمْ وترعاهُمْ بِحنانِها وعطْفِها وسيظلُّ أثرُ **(العمَّةِ تاتيانا) في نفسِ كاتبنا العظيمِ خالِداً**، ويظلُّ شخصُها حيّاً في قلْبِهِ، وصُورتِها ماثِلةً في خاطِرِه: فقدْ كانتْ عنايتُها بالصغيرِ ليون خيرَ تعويضٍ لهُ في طُفولتِهِ لهُ عنْ أمِّهِ الرَّاحلةِ، فأحبَّها منْ أعْماقِ قلبهِ حُبّاً

يصغُرُ أمامهُ كلُّ حُبٍّ، وظلَّ دائـــمَ الاعْـترافِ بفضْلِها عليهِ، وممّا سيكتُبهُ في مُذكراتِهِ عنْـــها: "لقدْ كان للعمَّةِ تاتيانا أعظمُ الأثرِ فـــي حيــاتي، فمنذُ الطُّفولةِ البــاكِرةِ علَّمتنـــي بهْجــةَ الحُـــبِّ الروحيِّ وجمالَهُ، لابِكلامِها فحسب، بلْ بِسُـلوكها العمليِّ ومثَلِها الأعْلى".

أمَّا أبوهُ الكونتْ **نيقولا تولستوي** فقدْ كـــان شديد العَطْفِ على أبْنائهِ، وكـــانَ ليـــونُ يشْـــعُرُ بطيبةِ قلْبِ أبيهِ، ونفْسِهِ العامِرةِ بالرأفةِ والرِّفْـقِ، وكانتْ هيْبةُ أبيهِ أكْبرَ ما يسترعي انتِباهَ الطِّفْـلِ، وقدْ علَّلَ يوماً سِرَّ تلكَ الهيْبةِ بقوْلِهِ: "مـــا أهـــانَ والدي نفْسَهُ من أجْلِ كبيرٍ، وما طأطـــأَ رأســـهُ

لِعظيمٍ، وقدْ ظلَّ مُحتفِظاً بروحِهِ المَرِحةِ وثِقتِـــهِ بنفْسِهِ وكرامتِهِ، ممّا ملأ نفْسي محبةً لهُ وإعْجابـاً به" وسيرثُ ليونُ عن أبيه جُملةَ صِفاتِهِ، فينشـأُ عطوفاً رؤوفاً طيِّبَ القلْبِ إلـــى شِـدَّةِ اعتِـدادٍ بالنفْسِ، تدفعُهُ إلى المباهاةِ والزَّهُوِّ والتكبُّرِ علـى غيْرِهِ أحْياناً، وسنشْهدُ فيما بعدُ جِـهادهُ العظيـمَ لِنفْسِهِ، للتغلُّبِ على تِلْكَ النزعاتِ الموْروثةِ فـي طبعِهِ وسُلوكِهِ.

2

عِندما بلَغَ الطِّفْلُ الصغيرُ الخامِسةَ من عمرِهِ انضمَّ إلى اخوتِهِ ليبْدأ الدِّراسةَ، وكانَ الأبُ قد أحْضرَ إلى القَصرِ مُربِّياً ألمانياً لتعليمِهِمْ اللغة الأجنبيةَ بالحِوارِ والمُمارسةِ، لا بِالقِراءةِ في الكُتُبِ وحدَها، وكانَ المُربّي الألمانيُّ رجُلاً مستقيمَ الخُلُقِ كريمَ الطَبْعِ، عَطوفاً على منْ يُربِّيهِمْ، شديداً عليهِمْ أحياناً في غيرِ عُنْفٍ، مُخْلِصاً في عملِهِ، ولِهذا كانَ أثرُه في نفسِ ليونَ كبيراً، إذْ وجَدَ فيهِ الصبيُّ قُدْوة حسنةً بأخْلاقِهِ وصِفاتِهِ، واستفادَ منْ دُروسِهِ أبلَغَ الفائِدةِ.

وكانَتْ حُجْرَةُ الدِّراسةِ في القَصْرِ تجمَعُ أبناء الكونت، وكان ليونُ شديدَ الحُبِّ لاخْوتِهِ جميعـــاً، وكانَ يُحِبُّ اللِّعِبَ معهُمْ، عِنْدما تنْتـــهي ســاعاتُ الدِّراسةِ، ويأذنُ لهُمْ مُربّيـــهِمْ الألمــانيُّ بِمُغــادرةِ الحِجْرةِ، لينالوا حظَّهُمْ مِنَ اللعِبِ والرياضـةِ!

كانَ أخوهُ الأكبرُ نيقولا واسعَ الخيالِ، يبتَكِرُ ألْواناً مِنَ الألْعابِ، فيجِدُ فيها الصِّغارُ ما يبْـــهِجُ نُفوسَهُم ويملؤها مرحاً، وكان يـــروي لإخْوتِـــهِ الحكايــات والقِصـــص الجميلـــة المُختَرَعـــةَ، ويحشُوْها دُعابات وفُكاهاتٍ.

وأمَّا أخوهُ الثاني سيرجي فكانتْ لـــهُ منــذُ طفولتِهِ هيئةٌ أرستقراطية واضحةٌ، وكان شــديد الإعْجابِ بنفْسِهِ وهِنْدامِهِ، فكانَ ليونُ يتمنَّـــى أن

يكونَ لهُ مثلُ وجاهَتِهِ وشكْلِهِ، وكانَ يُحـــاوِلُ أنْ يُقلِّدهُ فيما يعمَلُ، فلا يفُوزُ بِما يُريدُ، لأنَّهُ لمْ يكُـنْ لهُ ما لأخيهِ منْ جمالِ الطَّلْعةِ وحُسْـــنِ السِّـمةِ، وكانَ هذا كلُّهُ مصدر آلامٍ للصَّبيِّ في طُفولتِهِ، ثُمَّ في مرْحلةِ شبابِهِ، وسيظلُّ الكاتِبُ العبْقري دائـــمِ الإحْساسِ بحِرمانِهِ من الوسامةِ وجمالِ الطَّلْعـــةِ، كثير الانْطِواءِ على نفْسِهِ من أجْلِ ذلــــكَ، فـــي مُستقبلِ أيّامِهِ.

وكان أخوهُ ديمتري أقرَبَ الثلاثةِ إليْهِ سـنّاً، وكان يأسرهُ بهُدوئِهِ وابتِسامتِهِ الحُلوةِ وعاطِفتِـــهِ الرقيقةِ الحانيةِ، ولكنَّ ليون لا يذكرُ عنـــهُ شـيئاً كثيراً في كتاباتِهِ.

وقد وصفت ماري أخاها الأصْغر ليون بأنَّهُ كان مَرِحاً شديدَ المرَحِ، كثيرَ الابْتِسامِ والأدبِ، رقيقَ الإحْساسِ، ولمْ يكنْ مرّة فظاً معَ أحدٍ من الأطْفالِ، وعِنْدما كان يغضَبُ لأمرٍ ما كانتْ دُموعُهُ تنهلُ منْ عيْنيْهِ، وإذا ضايقهُ أحدُ اخْوتِهِ كان يعْدو بعيداً، ويسْتسلِمَ إلى الصُّراخِ طَويلاً.

وكانتْ **أجْملَ** مسراتِ **الصَّبيِّ في طُفولتِهِ** بهْجةُ نفسِهِ في أعْيادِ الميلادِ، وما تحشُدُ الأُسْرةُ لَها مِنْ مظاهِرِ الفرحِ والطَّعامِ والشَّرابِ، والثِّيابِ الجديدةِ، كما كانَتْ مشاركةُ الصبيِّ مع اخوتِهِ في نزهاتِ الصيدِ مع أبيهمْ، على ظُهورِ الخيْلِ أوْ في العرباتِ الجميلةِ، منْ كُبْرى مباهِجِ

طُفولتِهِ ومسرّاتِها، وعلى هذا كانتْ طفولةُ كاتبنا العظيمِ تفيضُ بالسَّعادةِ، وقدْ وصفَ هُــوَ نفسُــهُ حلاوتَها في أوّلِ كِتابٍ لهُ وهُو "عهْدُ الطُّفولــــةِ" فقالَ:

"ما أسْعدَ هاتيكَ الأيّام الحُلْوةَ، أيّامَ الطُّفولــةِ التي لاتنْمحي ذِكْراها، وكيف ينســى امــرؤ أنْ يُحبَّ ذِكرياتِها وأنْ ينعمَ بِها! إنَّ هذهِ الذِكريــاتِ لتُنْعِشُ روحي وتَسْمو بِها، وهي المنْبعُ لأعْظــمِ فيضٍ من السُّرورِ يغْمرُني".

وعِنْدَما أتمَّ ليون السنةَ الثّامنةَ من عمرِهِ عامَ 1837 انتقلتِ الأُسرةُ إلى موسكو، ليُتابِعَ الأوْلادَ دِراستهُمْ فيها، ويبدو أنَّ صاحبنا لم يكُنْ مُرتاحاً

إلى تركِ مرابعِ طفولتِهِ السعيدةِ في (ياسنايا بوليانا) فلمْ يَنْشطْ إلى دُروسِ أستاذِهِ ومُربّيهِ الفرنسي الجديدِ في موسكو، واضْطُرَّ الأستاذُ إلى حبْسِ تلميذِهِ المُهْمِلِ في حُجْرةٍ، وإلى تَهْديدِهِ بالضرْبِ بعصاهُ، وكانَ أثرُ هذا العِقابِ في نفْسيَّةِ الصبيِّ قاسياً، فأحسَّ بمزيجٍ من الغضبِ والاحتِقارِ والاشْمِئزازِ، نحْوَ مُربّيهِ الجديد، ونحْوَ القسْوةِ والعُنْفِ والعِقابِ إجْمالاً. وكان المُربِّي الفرنسيُّ مع ذلك مُوقِناً من موْهِبةِ الصبيِّ وذكائِهِ وكان يُسمِّيه "مُولْيير الصغيرَ" لِما كانَ ليونُ يمتازُ بهِ من حسٍّ مُرْهفٍ ومُلاحظةٍ دقيقةٍ وفِطْنةٍ وإدْراكٍ.

كانَ ليونُ منذُ طُفولتِهِ مشبُوبَ العاطِفةِ، كثيرَ الانفِعالِ، يُصْغي بِكُلِّ جوارِحِهِ إلى الموسيقى وإلى القصَصِ والحكاياتِ، ويُحِسُّ بالنَّشْوةِ تغْمرهُ وتجعلُهُ يسترسِلُ في أحْلامِهِ، وكانتْ عواطِفُ الحُبِّ والغيرةِ تمـلأُ قلبَهُ الصَّغيرَ، وتسيلُ دُموعُ عينيْهِ، وكمْ مِنْ **طِفلةٍ أحبَّ** وشعَرَ وهُوَ يُرافِقُها بِدُموعِ الفرحِ تنهلُّ على خدَّيْهِ مِنْ فرْطِ نشْوتِهِ، **وقدْ بلغتْ غيرتُه يوماً على إحْداهُنَّ وهي تتحدَّثُ إلى غُلامٍ غيرِه، إلى أن دفَعَ بِها مِنَ الشُّرْفةِ فسقَطَتْ وأُصيبَتْ بعوَجٍ لمُدَّةٍ طويلةٍ، وشاءَ القدر أن تصير هذهِ الطِفْلةُ أمَّ** زوجتِهِ، فيتزوَّجُ بعْدَ ربعِ قرنٍ مِنْ إحْدى بناتِها.

ولمْ يَسعدِ الصبيُّ بمُقامهِ في موسكو، ففـــي صيفِ العامِ نفسِهِ (1837) يموتُ أبُوه، وتتبعُـــهُ أمُّهُ (جدَّةُ ليون) حُزْناً على ولَدِها بعْـــدَ أشْـــهُرٍ، ويشعُرُ الصبيُّ بيدِ الموتِ تعْصِرُ قلبهُ الصَّغـــيرَ، وتدفعُ بِهِ إلى التفكيرِ في الموْتِ، وهُوَ بعْدُ فـــي تِلْك السِّنِّ الغضَّةِ، ولمَّا يبْلُغِ التاسِعَةِ مِنْ عُمُـــرِهِ، وقدْ أصبحَ مُنْذ اليومِ يتيمَ الأبويْنِ!

وصارت الوصاية على الأولاد إلى عمتـــهم ألين (الكونتس أوستن سيكن) وكانت امرأة تقيـــة صالحة تعطف على الفقراء وترأف بخدمها، وقد خلفت في نفس ليون شعورا عميقـــا بـــالإجلال والإكبار، وهي التي علمته كيف تســمو النفــس

الفاضلة وتطيب بالدين، ولكن العمة ألين تقضـــي نحبها في خريف عام 1841، فتنتقـــل الوصايـــة على الأولاد إلى عمة أخرى لهم هـــــي الســـيدة يوشكوف، زوجة أحد الملاك من ذوي الثراء في قازان، وينتقل الأولاد إلى هذه المدينة ليكونـــــوا تحت رعاية عمتهم (يوشكافا) وقد أصبح ليـــون في نحو الثالثة عشرة من عمره.

3

كانت العمة (يوشكافا) امرأة طيبة القلـــب، على حظ متواضع من الثقافة، وكـــان زوجــها الثري يقضي أكثر وقته في استماع الموســـيقى ولعب الورق، وكان يجمع أصحابه فـــي بيتــه لذلك، فتأثر الصبية بالجو اللاهي الجديد، وكـــان لذلك سوء أثره في دروسهم.

وكان أكثر ما يشـــغل ليــون فـــي قـــازان انصرافه إلى المطالعة، فقد أصبح يلتهم الكتـــب التهاما، وقد اغرم بقصص ألف ليلـــة وليلـــة، وشعر بوشكين، وفي قراءته للإنجيل اســـتهوته

قصة يوسف، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى راح يقرأ **مؤلفات روسو**، ثم أصبح مسحورا بها، واتجه بعد ذلك إلى **قراءة الفلسفة**، وقد بلغ السادسة عشرة، وقد شغلته فكرة الوجود والروح ومهمة الإنسان في هذا الكون، ومصيره والحياة الأخرى إلخ.. ووجد الفتى نفسه منساقا إلى التشاؤم، فيهمل دروسه، ويطلق العنان لشهوة جسده العارمة، وينغمر في البطالة واللهو، وسيظل ليون منذ يفاعته قوي البدن، متدفق الحيوية، ظامىء الرغبة إلى المرأة، على الرغم من شعوره الدائم بافتقاره إلى الوسامة وجمال الطلعة، وقد **ساقه الشيطان يوما في طريق الإثم** فأوقع في حبائله فتاة عذراء من

خدم عمته، وبلغ ذلك عمته فطردت الفتـــاة مـــن بيتها، فتلقاها الشارع وأسلمها إلى الرذيلـــة، ثـــم لاقت حتفها في صورة منكرة حزينـــــة، وكـــان لمأساتها البشعة أثر كبير في نفس الفتى المذنـــب الآثم، فظل الندم يخالجه على ما جنت يداه، غير أن ندمه لم يمنعه في شبابه من معـــــاودة الإثـــم والاستسلام إلى الرذيلة، في وقت كان الصـــراع فيه بين نفسه وشيطانه لاينقطع.

وعِندما بلَغَ ليونُ السادِسةَ عشْرة مِنْ عُمـــرِهِ التحقَ بِجامِعَةِ قازان، وانتسبَ إلى قِسْمِ اللغـــاتِ الشرقيَّةِ، ولكنَّهُ كانَ في ساعاتِ الدَّرْسِ ينصرِفُ عمَّا يقولُهُ الأساتِذةُ، ويُقلِّبُ عيْنيْهِ ساخِراً منْ كُـلِّ

ما يرى، ويستسلمُ إلى مايطوفُ برأسِهِ مِنْ أحلامِ الشَّبابِ وأوْهامِهِ، وكانَ أكبرَ ما يهتمُّ بـــهِ فتانـــا الجامعيُّ أنْ يلبسَ أجْمَلَ الثِّيابِ وأغْلاهـــــا، وأنْ يلْعبَ الميْسَرَ ويشْربَ الخمْرة مع جماعاتٍ مِـــنْ لداتِهِ، وأنْ يُدخِّنَ الطِّباقَ في غُليونٍ جميلٍ غـــالي الثَّمنِ، وأنْ يتطيَّبْ بأغْلى العِطْرِ، ويدهُنَ شـــعْرهُ ويُلَمِّعَهُ، وأنْ يتكلَّمَ الفرنسيةَ في أناقةٍ مُتكلَّفةٍ! وقدْ كـــانَ حريصـــاً علـــى أنْ يُخـــالِطَ الأوْســـاط الأرستقراطيَّة في المدينـــة ويحضُـــرَ الحفـــلاتِ العامَّةَ لِيجذِبَ الأنْظارَ إليْهِ بمظْهرِهِ الأنيقِ، وقُوَّةِ شخْصيّتِهِ، ومُشـــاركَتِهِ فـــي أحـــاديثِ النَّـــاسِ، ومُعارضةِ آراء المُتحدِّثين مِنْهُم، للتدليـــلِ علـــى

أصالتِهِ وعُمق تفْكيرهِ! وكانتْ أحْلامُ شبابِهِ تدفعُهُ إلى مُلاحقةِ الفتياتِ، وليْسَ عَجيباً أن يغدوَ الفتى، بعْدَ إسرافِهِ في عبثِهِ ولهْوِهِ، طالباً فاشِلاً مُخْفِقاً في دِراستِهِ!

وترك ليونُ كليَّةَ اللُّغاتِ الشَّرقيَّةِ في عامِهِ الجامعيِّ الثاني والتحقَ بكُليَّةِ القانونِ، وكان ميّالاً إلى القانون المقارن، والقانونِ الجنائيِّ ودِراسةِ عقوبةِ الإعْدامِ، فأقْبلَ على قِراءتِها، وأهْملَ العُلومَ الأُخْرى، وكان الفتى يجدُ المتعةَ في دِراسةِ ما يُحبُّ، فلا يقِفُ عندَ حُدودِ المَناهِجِ المُقرَّرةِ، ويُهْمِلُ ما لا يُحِبُّ وينْصرِفُ عنْهُ، في عِنادٍ واستِخْفافٍ بالامْتِحاناتِ الجامعيَّةِ ونتائِجِها.

وفي آذار مِنْ عامِ 1847 يُصيبُ جسمَهُ المرضُ، بعدَ أنْ أنهكَهُ بالإسْرافِ في ملذاتِهِ، فيدخُلُ المستَشْفى، وهناكَ يبدأ بِكتابةِ مذكراتِهِ اليوميَّةِ التي ستغْدو أهمَّ مصادِرِ تاريخِ حياتِهِ.

وفي أيار منْ ذلكَ العامِ يترُكُ ليونُ الجامِعةَ دونَ أنْ يحْصَل على شهادةٍ ما، وقدْ توقَّفَ عِنْدَ هذا الحدِّ مِنَ التعْليمِ الجامعيِّ.

كانتْ تركةُ أبيهِ قدْ قُسِّمتْ قبلَ عامٍ بينَهُ وبينَ إخْوتِهِ، فكانَ نصيبُهُ مِنْها ضيْعةَ (ياسنايا بوليانا) معَ أربعِ ضِياعٍ أُخْرى، تبلغُ مساحتُها 405 آلاف مِنَ الأفْدِنةِ، مع 350 مِنَ الفلاَّحينَ الذُكورِ ومنْ ورائِهِم أسَرُهُم، وقدْ عزمَ صاحِبُنا

على العَوْدةِ إلى أمْلاكِهِ، ليتولّى إدارتَها بنفْسِــهِ، وينْهضَ بإصْلاحِ حالِ فلاّحيه فيْها، ليُنقذهُمْ مِمَّــا هُمْ فيهِ من جهْلٍ وبُؤسٍ.

ويعودُ الفتى وقدْ أشرفَ على العِشرينَ إلــى ضيْعتِهِ ليبدأ **خطّتَهُ في الإصْلاحِ**، وينصرفَ فــي عزيمةٍ إلى بِناء أكْواخٍ جديدةٍ لسُــكْنى فلاّحيــه، ويُنشىءُ لأبنائِهِم المدارِس، وكانتِ العمَّةُ تاتيانــا تنْظرُ في دهْشةٍ إلى أعْمالِهِ، وتحْسَبُ أنَّها نزْعــةٌ جديدةٌ مِنْ نَزعاتِ الشَّبابِ لا يلبثُ أنْ ينْصــرِفَ عنْها. والحقُّ أنَّ الفلاّحين أنفُسهم أعرَضوا عــنْ إصْلاحاتِهِ، وكانَ الفتى المُصلِحِ يتألَّمُ لِما يــرى في وُجوهِهِمْ مِنْ علاماتِ الشَّكِّ والعِنادِ والإنْكارِ، وهُمْ يصِفونَ الأكْواخَ الجديــدةَ بأنَّــها سُــجون،

ويتبرَّمونَ مِنْ مدارِسهِ لأنَّـــها تشــغَلُ أبْنــاءهُمْ وتحرِمُهُمْ مِنْ مُساعدَتِهِم وعونِــهِمْ فـــي أعمـــالِ الزّراعةِ، ويُحِسُّ ليون بالخيبةِ والمرارةِ لإخفاقِ مَشْروعِهِ الإصلاحيِّ، فينصرِفُ عنهُ ويرتَدُّ إلـــى حياةِ اللهْوِ والعَبَثِ والمُجونِ والميْسرِ، ثمَّ لا يلبثُ أن يُغادِرَ ضيْعتَهُ إلى موسكو أواخِرَ عـام 1848، حيثُ يقضي عِدَّةَ أشهرٍ مُطلقَ العِنانِ مُسترسِـــلاً وراء شهواتِهِ، ثُمَّ انتقَلَ إلى بطرســـبورغ، وقـدْ عزمَ على مُعاودةِ دِراسةِ الحُقوقِ في جامِعتِـــها، وكتَبَ إلى أخيهِ في شُباط 1849 بِما جــــدَّ مِــنْ عَزْمِهِ، غيْرَ أنَّهُ في شهْرِ أيار كتبَ إلـــى أخيــهِ ثانيةً، يصِفُ لهُ سُوء حالِهِ، وقدْ أنفقَ كُلَّ ما معَهُ في اللهْوِ واللَّعِبِ، وتورَّطَ في دُيونٍ كثيرةٍ.

ولمْ يجدِ الفتى اللاهيْ بُدّاً مِن العوْدةِ إلى ضيْعتِهِ، نادِماً على إسْرافِهِ في العبثِ والمُجونِ، وعازِماً على التِماسِ الهُدوءِ والرّاحةِ والتفرُّغِ لِشُؤونِ ضِياعِهِ وأمْلاكِهِ!

ولكنَّ الفتى لنْ يصبرَ على المُقامِ في ضيعتِهِ الهادِئةِ، وسيظلُّ طوالَ السنواتِ الثلاثِ يُوالي رِحْلاتِهِ إلى موسكو وبطرسبورغ، يحمِلُ في كُلِّ رحلةٍ معهُ ما يتجمّعُ لديْهِ مِنْ مالٍ، ليُنفِقهُ على لهْوِهِ وعبثِهِ، حتّى إذا أفلسَ واستدانَ ارتدَّ إلى الضَّيعةِ مِنْ جديدٍ، وقدْ أدْركَ أنَّ أكْبرَ رذائِلِهِ آفتان هُما: لَعبُ الميْسرِ وشِدَّةُ الغُرورِ!

إلاّ أنَّ الفتى المُنْغمسَ في المُجونِ واللَّهْوِ كانَ يفتأ يُوالي قِراءةَ القِصصِ، ويلتهِمُ مُؤلَّفاتِ

ديكنز وجوجول وغيْرهِما، ويُمنِّي نفْسَهُ بأن يكتُبَ قصصاً مُماثِلةً، وكانتِ العمَّةُ تاتيانا تُشجِّعُهُ وتقولُ لهُ: "إنِّي لأعْجبُ يا عزيزي ليونَ كيفَ لا تكتُبُ روايةً ولكَ مثلُ ما لك مِن خيالٍ!" وعِنْدما انتهى مِنْ قراءةِ رائِعةِ ديكنز (دافيد كوبرفيلد) التي يصِفُ فيها مشاهِدَ مِنْ طُفولتِهِ، خطرَ للفتى أنْ يكتُبَ أيَّام طفولتِهِ، فانكبَّ على الكِتابةِ حتَّى أتمَّ باكُورةَ آثارِهِ الخالِدة (عهدُ الطُّفولةِ)، ولكنَّ ميْلَ الفتى إلى اللهْوِ والمَيْسرِ والنِّساءِ والخمْرةِ كان يدعُوه دائِماً إلى مُعاودةِ حياتِهِ الماجنةِ، حتى ضاق ذرْعاً بسُوءِ حالتِهِ، وكان أخوهُ الكبيرُ نيقولا ضابِطاً في الجيْشِ الرُّوسيِّ في القوقاز،

وحضرَ في إجازةِ عيدِ الميلادِ عام 1851 إلـــــى ياسنايا بوليانا، فهالهُ ما رأى من سُوء حالِ أخيــهِ وضيقهِ، فدعاهُ إلى الرَّحيل معهُ إلـــى القُوقـــاز، ليحيا هُناكَ حياةً جديدة، يتخلَّصُ فيها مِنْ كلِّ مـــا يُعانيهِ من ضيقٍ، واستجابَ الفتى لِدعوةِ أخيـــهِ، ليبدأ صفحةً جديدةً مِنْ حياتِهِ.

4

وصلَ ليونُ تولستوي بصُحْبَةِ أخيهِ الضابطِ نيقولا إلى **القوقاز**، ونزلا في مدينةِ (ستاري يورت)، وقدْ أثارَ منظرُ تلكَ الجبالِ الشامخةِ إعْجابَ الشابِّ فراحَ يصِفُ لعَمَّتِهِ تاتيانا في رسائلِه روْعةَ ما يرى وصفاً عامِراً بالنَّشْوةِ والحماسَةِ، وقدْ تملَّكَهُ الفرحُ والنشاطُ لِحياتِهِ الجديدةِ عِنْدَ سُفوحِ تِلْكَ الجِبالِ الشاهِقةِ، وتحسّنتْ صِحَّتُهُ تحسُّناً ملْحوظاً، فقامَ بِعِدةِ رِحلاتٍ للصيدِ، وازدادَ إعْجاباً بِموقِعِ تِلْكَ البِلادِ ومناظِرِها الفاتِنةِ، كما أُعْجِبَ بأهلِها وأخْلاقِهِمْ وعاداتِهِمْ.

ولكنَّهُ وجدَ نفسَهُ بعْدَ حيـــنٍ يُعـاوِدُ لَعِـبَ الميْسر، ويخسرُ في ليلةٍ واحدةٍ مئاتِ الروبـلات، فازْدادَ كدرُهُ، وقد أيْقنَ أنّ الهِجرة إلى القوقازِ لـم تُخلِّصهُ مِنْ أهْواءِ نفْسِهِ ومُيولِها السيِّئةِ، وعرضَ عليْهِ أخوه أنْ يتطوَّعَ في جيْشِ القوقاز، ليشـغلَ نفسَهُ، فقبِل وأرْسِلَ إلى مدينة (تفليـسَ) حيـثُ أدّى امتِحاناً أهَّلَهُ للالتِحاقِ مُتطوِّعـاً بـالجَيْشِ، وأُلحِقَ بفرقةِ المدْفعيَّةِ الرابِعـةِ فـي (سـتاري يورت) في شُباطَ 1852، وقد تمكّنَ بِبسالتِهِ مـن لَفْتِ الأنْظارِ إليْهِ، ولكِنَّ إقْبـالَ الضُبـاطِ مِـنْ زُملائِهِ على الميْسرِ أغْـراهُ بـاللعِبِ، وتوالـتْ خسائِرُه التي كان يكتُبُ إلى عمَّتِـهِ بأخبارِهـا، وكانَ مع ذلِكَ يُوالي الكِتابةَ، وفي عددِ تشـرينَ

الثاني مِنْ مجلَّةِ (المُعاصِرِ) الشَّهيرةِ، منْ عـــامِ 1852 نُشِرتْ قصَّتُهُ (عهدُ الطُّفولـــةِ) وحظيــتْ بثناءِ النُّقادِ وأهلِ الفنِّ عليْها، وفـــي مُقدِّمتِـــهم تورجنيف وديستويفســـكي، وتنبـــأوا لِكاتِبِـــها (ل.ت) بمُستقبَلٍ مجيدٍ، وطابتْ نفسُ الشابِّ بـــهذا النَّجاحِ، وقدْ كانَ "عهدُ الطُّفولةِ" عملاً فنيًّا مـــزجَ فيهِ الكاتِبُ الناشِيءُ بينَ الحقيقةِ والخيـــال، ففيـــهِ أشياءٌ من سيرةِ طُفولتِهِ ممْزوجةٌ بِالخيالِ، ببراعـــةٍ وأصالةٍ وصِدْقٍ فنِّيٍّ، وكانَ نجاحُ تولستوي العظيمُ في عملِهِ الأوَّلِ هذا حافِزاً لَهُ إلى كتابةِ ذكْريـــاتِ صِباهُ في "عهْدِ اليفاعةِ" فأكبَّ على العَمَلِ بِنشـــاطٍ وهِمَّةٍ في تحقيقِ مجْدٍ أدبيٍّ كبيرٍ.

وبدأ الشابُّ يسأمُ حياةَ الجنْديةِ، ولـــوْلا أنَّ القوقازَ بِمناظِرِها وأهلِها وأحْداثِ الحيـــاةِ فيـــها كانَتْ تُزودُه بِمادةٍ طريفةٍ لفنهِ القصَصِـــيِّ لمـــا أطاق الصبرَ على العيش هُناك، ولوْلا أنَّهُ كـــانَ يقْضي أكْثرَ أوْقاتِ فراغِهِ في قِراءةِ الكُتبِ لكانَتْ شكواهُ مِنَ الخُمولِ والكَسَلِ تُنغِّصُ عليْهِ أيَّامَـــهُ، وقدْ كتبَ في مُذكّراتِه في شـــهرِ آذار 1853: "إنَّ الخِدْمةَ في القوقاز لمْ تجُرَّ عليَّ إلا المصـــاعِب والكَسلَ ومعْرِفةِ غيْرِ الأخيارِ!"

وكثُرتْ تأمُلات الشابِّ وهُوَ في القوقازِ فـــي الدّينِ والإلهِ والإيمـــانِ بوُجـــودِ الله، والجِسْـــمِ والرُّوحِ، وفي مُذكّراتِهِ لِتِلْكَ الأيَّامِ أصْداءُ هـــذهِ التأمُّلات، وهِي تُصورُ حيْرةَ الشابِّ بيْنَ الشـــكِّ

والإيمانِ، لتكوينِ صُورةٍ فـــي نفْســهِ عــن الله، وخُلودِ الرُّوحِ، ويوْم البعثِ والحِســـابِ لِجــزاءِ الإنْسانِ على عملِهِ، وهذِهِ التأمُّلاتُ الدينيةُ سيعودُ إليْها تُولستوي في كهُولتِهِ كما ســـنرى عِنْدمـــا ينصرِفُ عنِ الفنِّ إلى الدينِ ومسائلِهِ ودِراســـةِ الكِتابِ المُقدَّسِ.

وضاقتْ نفسُ تولستوي آخر أيّام إقامتِهِ فـــي القوقازِ، وهُوَ يحمِلُها على الصبرِ والانتِظارِ، إلى أنْ أُتيح لهُ في شهْرِ كـــانونَ الثـــاني 1854 أنْ يترُك القوقاز، فنُقِلَ إلى جيْشِ الدّانوبِ بناء على طلبِهِ! وعادَ الشابُّ في إجازةٍ إلى ياسنايا بوليانـــا بعْدَ أنْ غابَ عنْها ثلاثَ سنواتٍ طويلةٍ.

وفـــي آذار التَحـق تولسـتوي بجيـــشِ الدّانوابِ، في بوخارِسْت، وهو فــــي السادِســةِ والعِشْرين، ليشْهدَ حرْباً كبيرة، ويكتسِــبَ مِــنْ مُشاركتِهِ فيها خبرة جديدة، وسيستغِلُّ خبرتَه هذهِ في معارك القرْمِ خيْرَ استِغْلالٍ عِنْدما يكتُبُ فيمــا بعْدُ قِصتَّهُ العُظْمى (الحربُ والسّلامُ) فينْقُلُ إلــى القارىء صُوراً حيةَ للحرْبِ، تُذهِلُــهُ بواقِعيّتِــها وصِدقِها. وانضم تولستوي إلى الجيشِ الذي كانَ يُحاصِرُ مدينة (سلستريا) فشهِدَ في هذا الحِصــار ما اختزنَهُ في ذاكِرتِهِ العجيبةِ مِنْ مناظِرِ المــوْتِ والدّمارِ، وسُلوكِ الضبّاطِ والعلاقاتِ بينَهُمْ، وحياةِ الجُنودِ في قلْبِ النّارِ ليستفيدَ مِنْ كل ذلكَ في فنِّهِ

العظيمِ عِنْدما يُؤلِفُ (الحربُ والسَّلامُ) فيُقدِّمُ أرْوعَ روايةٍ في الأدبِ الرُّوسيِّ كُلِّهِ.

وفيْ شهرِ تشرين الثاني 1854 انضمَّ تولستوي إلى المُدافِعينَ عن حِصْنِ سباستبول، وكانتْ جُيوشِ ثلاث دُول تُحاصِرُهُ حِصاراً عنيفاً، وهِيَ تركيةٌ وانكلترةٌ وفرنسةٌ، وكانَ الرُّوسُ يستميتونَ في الدِّفاعِ عنِ الحصْنِ، وراحَ تولستوي يتنقَّلُ مِنْ حصْنٍ إلى آخر أثْناء القِتالِ، مُقْتحِماً الأخْطارَ ببسالةٍ وإقدام وقُوَّةٍ بدنيَّةٍ خارِقةٍ أدْهشتْ أقْرانَهُ ولفتَتْ إليْهِ الأنْظارَ.

وكانَ الشابُّ يعاودُ لعِبَ الميْسرِ، ويتكبَّدُ الخسائِرِ، وفي مطْلَعِ عامِ 1855 بلغَ مِنْ خسارتِهِ

أنَّهُ كتبَ إلى وكيلِهِ في ضيعةِ ياسنايا بوليانـــا أنْ يبيعَ بيتَهُ فيها، ليدفعَ ديونهُ التـــي غــرِقَ فيــها، وكانَ الشابُّ يُفْضي إلى مُذكَّراتِهِ بندَمِهِ، ويلُـــومُ نفْسَهُ أعنفَ اللَّوْمِ على إدْمانِهِ اللعِبَ وعجزِهِ عـنِ التخلُّصِ مِنْ هذه الرّذيلةِ الكبيرةِ!

والعجيبُ أنَّ تولستوي لم يكُنْ يُـــهْمِلُ فنَّـــهُ الأدبيَّ معَ كُلِّ ذلك، وقدْ كتبَ قِصَّةَ (سباســتبول) ونشرها في مجلةِ (المعاصرِ) فاستقبلتْها الأوْساطُ الأدبيَّةُ في بطرسبورغ ببالغِ التقديـــرِ، وحظـــي تولستوي على أثرِها بشُهْرةٍ كبيرةٍ ، **وقال عنْـــها تورجنيفُ "إنَّها مُدْهِشـــةٌ، وإنَّ الدُّمـــوعَ كـــانتْ تتساقطُ مِنْ عينيَّ وأنا أقرؤها"** وقرأها القيصــــرُ الجديدُ (الإسكندر الثاني) الذي تولّى العرشَ بعــدَ

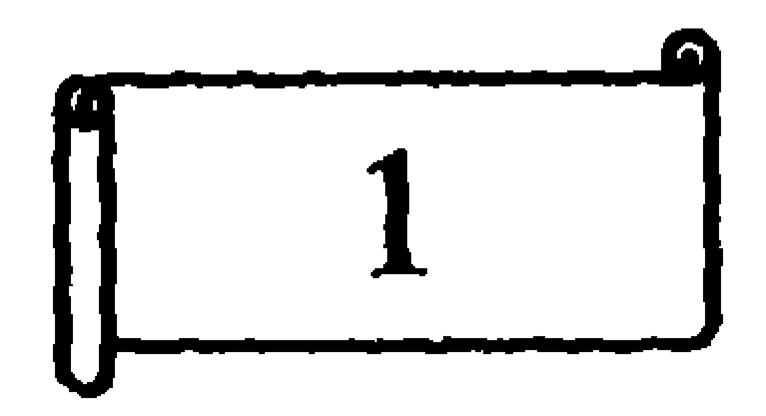
وفاةِ نيقولا الأوّلِ في هذا العامِ (1855)، فنالتْ إعجابَهُ، وحرصاً على حياةِ كاتِبِها الموْهوبِ أرْسلَ القيْصَرَ كِتاباً سرِّياً إلى القائدِ العامِّ يُوصيهِ بإبعادِ تولستوي عن مواطن الخطر، كيلا تفقد روسية هذا الكاتِبَ العظيمَ الذي تُبشِّرُ موْهِبتُهُ بِعبقريَّةٍ كبيرةٍ.

ولمْ يلبثْ تولستوي، عِنْدما قاربتْ الحرْبُ منْ نِهايتِها، أنِ اخْتتمَ حياتَهُ العسكريَّةَ، وارتدَّ إلى الحياةِ المدنيَّةِ وهُوَ في السابِعةِ والعِشْرينَ، وعادَ إلى بطرسبورغ، ليجِدَ نفسهُ فيها أديباً مرموقاً ذا شُهْرةٍ كبيرةٍ، لا يستطيعُ شابٌّ في مِثْلِ سِنِّهِ أن ينالَها إذا لمْ يكُنْ واحِداً منْ أفْذاذِ الموْهوبين والنّوادِرِ المُبرّزين.

الباب الثالث

بحثٌ عن القمّةِ في رحابِ الفنِّ

1855 ــــ 1863 م



عِنْدما تركَ تولســتوي سباسـتبولَ وحيــاة الجنديَّةِ، وعادَ إلى بطرسبورغ قصدَ من فــوْرهِ إلى بيْتِ **تورجنيف**، وكانَ قدْ تلقّى دعــوةً منــهُ للإقامةِ عندهُ في ضيافتِهِ، فتلقّاهُ الأديبُ الكبــيرُ بترْحابٍ ومودّةٍ، وقدّمهُ إلى الأوْســاطِ الأدبيَّــةِ والفنِّيَّةِ في بطرسبورغ، وكانَ تورجنيف يومذاك

زعيمَ كتّاب روسية بعدَ وفاةِ جوجـــول، ولكــنَّ الوفاق بين الرجلينِ لمْ يدُمْ طويلاً، إذْ سُرعان مـا اختلَفا، لاختِلافِ مزاجيْهِما مِنْ نحْوٍ، وللتّنـــافُسِ بين طُموحِ كلٍّ مِنْهُما، وإنْ يكُــنْ خفيّــاً، فــي عملِهِما في مجالٍ فنيٍّ واحِدٍ: فتورجنيــف كـانَ يتحفظُ ويتحرَّجُ ويُجامِلُ، وتولستوي كانَ صريحاً واضِحاً لايُخفي ما في نفْسِهِ، مع حِدّة طبعٍ فيـــهِ لاتعْصمُهُ حيناً مِنَ الوصولِ به إلـــى الحماقــةِ.

وهكذا فقد الضابطُ العائدُ مِنْ سباســتبول الجــوَّ الودِّيَّ الأوّل الذي قُوبل بِهِ في الأوْساطِ الأدبيـــةِ والفنيَّةِ في بطرسبورغ، ولكنَّ الصداقـــة التــي ربطتْهُ **بالشاعرِ الشابِّ فت**، الذي كان ضابطـــاً

من قبلُ مِثل تولستوي، لـم تنفصِـمْ عُراهـا، وأصبحَ الشاعرُ مِنْ أعـزِّ أصدقـاء تولسـتوي وأقربِهِم إلى قلبهِ طوال حياتِهِ.

كان تولستوي لايُخفي انْغِماسهُ فـي اللـهْوِ والميْسرِ والخمرةِ والنِّساء، وهو الذي يُنكرُ علـى أصْحابِهِ من الأدباءِ ورجالِ الفنِّ ما يفعلُـهُ هـو نفسُهُ، وقد دخلَ الشاعِرُ فت بيْت تورجنيف قبـل معرفتهِ بتولستوي، فـرأى سـيفاً معلقـاً علـى الجدار، فسأل الخادِمَ عنْهُ فأجابَـهُ: إنَّـهُ سـيفُ الكونت تولسـتوي، وهـو نـائمٌ فـي حجْـرةِ الاستِقْبالِ، ودخَلَ فت إلـى تورجنيـف، فكـان الرجلانِ يتكلمـانِ همسـاً، مخافـة أنْ يوقِظـا

تولستوي، وأشار تورجنيف إلى تولستوي قـائلاً: "هكذا تراهُ أبداً.. الخمـــرُ والغجريـــات ولعِـبُ الورقِ طوالَ الليلِ، ثم ينامُ هكذا كأنَّهُ جُثّةٌ هـامِدةٌ حتَّى الساعةِ الثانية بعْد الظهْرِ، ولقد حاولْتُ أولَّ الأمْرِ أنْ أصدَّه عن ذلك، ولكنَّني الآن نفضـــتُ يدي وتركتُهُ يفعلُ ما يُحِبُّ!"

وغادرَ تولستوي بطرسبورغ عـــائداً إلـــى ضيعتِهِ، وفي طريقِهِ عرَّج على موســـكو، وزارَ بعض منْ يعرفُ مِنْ ســـاكنيها، ومنْـــهُمْ أســـرةُ الدكتورِ (بيرز) وزوجْتُهُ هيَ تلك الفتاةُ التي كانَ يُلاعِبُها صغيراً، والتي كانَ يغارُ عليْها، ودفعـــها مرة دفعةً آذتْ ساقها، وقدِ استقبلتْهُ مـــع بناتِـــها

الصغيراتِ الثلاثِ في ابْتِهاجٍ وسُرورٍ، ولم يكُنْ تولستوي يدريْ يومذاك أنَّ الوُسطى التي كانتْ في الثانية عشْرة ستصبحُ بعْدَ سِتِّ سنواتٍ زوجتَهُ الكونتس تولستوي!

كان تولستوي شديد الرغْبةِ في الزَّواجِ، وقدْ تعلَّقَ حيناً بفتاة يتيمةٍ كانتْ لهُ الولايةُ عليْها، هي فاليريا أرسنيف، ولكنَّهُ ظلَّ مُتردِّداً في الإعْلانِ عن حُبِّهِ لَها، ثُمَّ انصرفَ عنْها وعادَ إلى موسكو، ليقضِي كثيراً من وقتِهِ في الكِتابةِ حتَّى أتمَّ كتابَةُ (عهدُ الشبابِ)، وبعْدَ تنقُّلٍ بيْن موسكووبطرسبورغ وضيعتِهِ، ومطالعاتٍ لِمؤلَّفاتِ جوتيه وهوغو وديكنز وثاكري وموليير

وشكسبير، عزَمَ تولستوي على القيامِ برحلةٍ إلــى أوربة، هي أوْلى رحلتيهِ في حياتِهِ: الأولى ســنة 1857 والثانيــةُ 1860 ـ 1861، ولــم يُغــادرْ تولستوي روسية طوالَ حياتِهِ في غــيرِ هــاتينِ الرحلتينِ.

2

في الحادي والعشرينَ مـــنْ شــباط 1875 وصلَ تولستوي إلى **باريس** بالقطار، ليقضي في العاصمةِ الفرنسيَّةِ ستَّة أسابيع، قضاها في التردُّد على مواطنِ اللهْوِ والمسارحِ والمراقِـــصِ ودار الأوبِرا والمتاحِفِ، وزيارةِ الكنـــائِسِ القديمـــةِ، والمـــدارِسِ العُليـــا، والأنديـــةِ ومرابِـــعِ الفـــنِّ والموسيقى **والتَقى في باريس بعيد وصولِهِ إليها بتورجنيف**، ودبَّ الخلافَ بينَ الصديقينِ حتَّـــى بلَغَ الأمرُ بتولســـتوي أنْ دعـــا صاحبـــهُ إلـــى مبارزتِهِ، لولا أنْ تدخَّلَ بينـــهُما صديـــقٌ لـــهما بالحُسنى، وأصلَح بينهُما، فنسيا خِلافهُما، وذهبـــا

معاً في شهْرِ آذار إلى مدينةِ ديجون ليقضيا فيها بضعةَ أيّامٍ قبلَ أنْ يَعود إلى باريس، وقد دُهِش تولستوي لجوٍّ الحريةِ الاجتماعيةِ الذي يعيش الفرنسيون فيهِ، والذي لم يكنِ الروس يعرفون شيئاً عنْهُ في بلادِهِمْ.

وفي شهرِ نيسان **شاهَدَ تولستوي تنفيذ حُكمٍ بالإعْدامِ** على أحدِ الرجالِ، ورأى المقصلةَ تقطعُ عنقَهُ، فحزِنَ لذلِكَ أعمقَ الحُزنِ، ولمْ ينمْ ليلتهُ من الألَمِ. وقد عكَّرَ هذا الحادثُ عليهِ صفوَ إقامتِهِ في باريس، فغادرَها سريعاً إلى سويسرة.

وفي جنيف التَقى تولستوي بالكونتس الكسندرا تولستوي، وهي إحْدى قريباتِهِ، وكانتْ

وصيفةً لابنةِ الإسكندرِ الثاني، وقد جاءتْ إلــــى سويسرة في صُحبتِها، وقدْ ملأتِ الكسندرا بعقلِها وملاحتِها وذوقِها في ملابسِـــها وزينتِـــها قلــبَ تولستوي وعقلهُ، ولكنَّها كانَتْ تكــــبرهُ بــاإحْدى عشرة سنةً، وكمْ تمنَّى لو أنَّها كانتْ فــــي مثْــلِ سنِّه، وقد ظلَّ على إعْجابِهِ بها طوالَ حياتهِ.

وقد تنقَّلَ تولستوي في ربــوعِ سويســرة، **مُتملياً جمال الطبيعةِ فيها**، نحْواً من شـــــهريْن، وقام برحلةٍ منْها إلى شـــمالي **إيطاليـــة**، ليُقــابلَ بعض أصحابِهِ، وكان يُوالي وصف مــــا تــرى عيناهُ من سِحرِ الطبيعةِ وفتنتِها في رسائلهِ إلــــى عمَّتِــهِ تاتانيــا، **ورجــعَ أخــيراً عــنْ طريــق**

(فرانكفورت) و (درسدن) إلى وطنــــه بعــدَ أنْ خسر في طريقهِ كل ما كان معهُ مِنْ مـــالٍ فـــي اللعبِ، وما استدانهُ منْ بعضِ أصحابِهِ أيضــــاً، ووصلَ إلى ضيْعتِهِ في آب، بعدَ أنْ قضى فـــي بطرسبورغ عدة أيّام، وسيقْضي تولستوي منــذُ ذلك الحين ثلاث سنوات في التنقل بين ضيعتِــهِ ومدينتي موسكو وبطرســبورغ قبْــلَ أن يقــومَ برحلتِهِ الثانيةِ إلى أوربة.

أمّا في الضيعةِ فقدْ كان تولستوي ينهمِك في رعايةِ شؤونِ أملاكِهِ وفلاّحيــــه، ويقبِــلُ علـــى الفلاحةِ كأنَّهُ فلاحٌ لم يُغادرْ أرض قريتِــهِ قــطُّ، وكان يُخالِطُ الفلاحينَ، ويحاولُ أن يقومَ ببعــضِ

أعْمالِهمْ، وقدْ أحبَّ إحْدى الفلاّحاتِ، ولمْ يستطِعْ أنْ يُغالبَ معها عرامةَ جسدِهِ، **وكان ثمرةَ تلك العلاقةِ المُحرَّمةِ ولدٌ لهُ، سيُصبِحُ سائساً فيما بعْدُ عِنْدَ أحدِ أبنائهِ**؛ وكان أحياناً يعنُفُ على فلاّحيهِ، ويندمُ على عُنفِهِ أكْبرَ الندّمِ، وقدْ شاركَ يوماً في صيْدِ الدِّببةِ في الغابةِ، فوثب عليْهِ دبٌّ وطرحَهُ أرْضاً وعضَّهُ عضَّةً قويَّةً مزَّقتْ خدَّهُ، تحت عينِهِ اليُسرى والجانِبَ الأيمنَ من جبْهتِهِ، ولولا أنَّ أصحابهُ أفزعُوا الدُّبَّ ففرَّ هارباً لكانَ تولستوي قد قضى نحبَهُ! وسيستغِلُّ قلمهُ الفنّانُ جميع هذهِ التجارب حين يصف أمثالها وصفاً نابِضاً بالحيويةِ والواقعيَةِ في رواياتِهِ.

وأمّا في المدينتينِ الكبيرتيْنِ فكان تولستوي ينصرفُ حيناً إلى اللهْوِ والمجونِ، ويقومُ حيناً بزيارة الأُسرِ التي يعرفُها، وقدْ قضى في بطرسبورغ مع ابنةِ عمٍّ أبيهِ الكسندرا عام 1859 عشْرة أيامٍ منْ أسعد أيام حياتِهِ، كما يقولُ في مُذكّراتِهِ.

وكان تولستوي لا ينقطِعُ عن الكتابةِ: فهو ينكبُّ على كتابةِ قصّتِهِ **(أهلُ القوقاز)** كما ينجزُ بعضَ الأقاصيص القصيرة، ولبّى في موسكو دعوة جماعةِ محبِّي الأدب الروسي فألْقى في مُنتداهم أوّل خطبةٍ في حياتِهِ، وكانَ موضوعها أنَّ العنصرِ الفنيّ في الأدب مقدَّمٌ على جميعِ

العناصرِ الأخْرى، وهو رأيٌ سيُخالِفُهُ هو نفْسُـــهُ كُلَّ المخالفةِ في المرحلَةِ الأخيرةِ من حياتِهِ.

وفوجِئ تولستوي بمرضِ أخيـــهِ نيقـــولا وسفرهِ إلى أوربة في طلبِ العِلاجِ، فقرَّرَ اللحاقَ بأخيهِ المريض ليراهُ، ويزور المدارس في بعضِ العواصمِ، ليطَّلِعَ على أنْظمةِ التعليمِ فيها، وهكـذا **غادرَ روسية إلى برلين** في تموز 1860، حيـثُ أمضى شهرين في زيارةِ مدارِسِـــها، وحضــورِ بعضِ المحاضراتِ فـــي جامعتِـــها، ومشـــاهدةِ الدراساتِ الليليةِ للعمَّالِ فيها، ثُمَّ تنقَّلَ في بعـــضِ المُدنِ الألمانيةِ الأُخْرى، وهُوَ يُوالي زيارة أخيــهِ المريضِ في مدينةِ **(سودن)**، حتى أشار الأطبـاء

عليْهِ بنقلِهِ إلى الجنوبِ، فانتقَلَ تولستوي بهِ، وكانتْ أختُهما ماري تُشرفُ على المريضِ، ورحلوا جميعاً إلى (هيرس) على شاطئِ البحْرِ المُتوسِّطِ، بالقُرْبِ منْ مدينةِ طولون، وعنْدَ مرورِهِمْ بفرانكفورت أُتيح لِتولستوي أن يزور ابنة العم الكسندرا تولستوي.

وفي (هيرس) **اشتدَّتْ وطأة المرضِ على أخيهِ، فقضى نحبهُ بين ذراعيْ ليون** في الثامنِ والعشرين من أيلول 1860، وقد ترك مشهد موتِهِ أثراً عميقاً في نفْسِهِ، وقد غمرهُ فيضٌ من الحُزْنِ والتشاؤمِ والتفكيرِ في مصيرِ الأحْياءِ إلى الموتِ والعدمِ.

وقامَ تولستوي بعدَ ذلك برحلةٍ إلى إيطاليـــة، حيثُ تنقَّلَ بينَ فلورنسة وروما ونابولي قبـلَ أنْ يعودَ في أوائلِ عام 8161 إلى فرنسة، ويـــزور باريس ويلتقي فيـــها بتورجنيـــف، ثُـــمَّ يســـافِرُ الصديقانِ معاً إلى لندن، حيثُ يحضُرُ تولســتوي بعضَ المحاضراتِ، وبعضَ جلســـاتِ مجلِــسِ العمومِ، وقامَ مع تورجنيـــف بزيـــارةِ الكـــاتِبِ الرُّوسيِّ الحُرِّ (هيرزن) وكان يعيشُ في المنفـــى بلندن، وفي شهرِ شباطَ أصْدرَ القيْصـــرُ قـــرارهُ بتحريرِ الفلاّحين، وعلِمَ تولستوي أنَّـــهُ اختـــيرَ قاضِياً (حكماً) في إقليمِهِ بين المالِكين والفلاحيـن فاعتزَمَ العودة إلى وطنِهِ، وعـــادَ عـــنْ طريـــقِ

(بريسل)، وفي هذهِ المدينة كانَ تولستوي يكتُــبُ قصَّتهُ (بوليكوشكا) وهي مأســـاةٌ تــدورُ حــولَ الرقِّ، وقدْ ندَّدَ فيها باســـتِغْلالِ ملاّكـــي الأرْضِ واستعبادِهِمْ لفلاّحيهِمْ وظُلمِهمْ لهُمْ، وتعدُّ أقْوى ما كُتِبَ في الأدبِ الرُّوسيِّ كلهِ في هذا الموْضــوعِ، ونالتْ إعْجابَ تورجنيف وتقديره؛ وفي أواخِـــرِ نيسان وصلَ تولستوي إلى وطنِهِ بعدَ هذهِ الرِّحلةِ التي استغْرقتْ عشرة أشْهُرٍ، وهي ثاني وآخِـــرُ رِحْلاتِهِ خارِجَ روسية كما قدَّمْنا.

3

كان تولستوي قد أنشأ في قريتِـــهِ **مدرســـةً خاصَّةً لتعليمِ أوْلادِ الفلاحين**، وكـــانتْ زياراتـــهُ للمدارِسِ في ألمانيا وسيلةً للاطِّلاعِ على أنظمـــةِ التعليمِ والاقتِباسِ مِنْها في تدبيرِ مدْرستِهِ وتطبيقِ نظريَّاتِهِ في التعليمِ فيها، وكانَ يريدُ أن يُشـــعِرَ تلاميذهُ بالحريةِ التامَّةِ ليُقبِلوا على التعلُّـــمِ بلـــذَّةٍ وانشِراحٍ، وكان يوجِّهُ كلَّ واحدٍ منْـــهُمْ حسْـــبَ مُيولِهِ، ولا يُلزِمُهُمْ بِما لا يُريـــدون، ولايطلـــبْ مِنْهُمْ إلاّ النظافة والانتِباه والصدقَ فـــي القـــوْلِ، ولهذا تعلَّقَ التلاميذُ بمعلميهِمْ، وكـــانوا ثلاثـــةً،

وكان تولستوي أحدَهُمْ، بالإضافةِ إلى قسِّيسٍ كان يتردَّدُ على المدرسةِ مرَّتيْنِ في الأسبوعِ.

كان تولستوي يحاولُ أنْ يتحرَّى المواهِب الفرديَّةِ في تلاميذهِ، فكانَ يبدأ معهُمْ قصَّةً ثُمَّ يسألُهُمْ أنْ يُشاركوا في إتْمامِها، ليستشِفَّ مُيولَهُمْ ومواهِبِهمْ، وفي دروس القراءةِ كان يتركُ لهُمْ حرِّيَّةَ اختِيارِ ما يقرأونَ، وأصْدرَ تولستوي مجلةً تحملُ اسمَ ضيعتِهِ (ياسنايا بوليانا) ليُبثَّ فيها آراءهُ في التربيةِ والتَّعْليمِ، ويعْرِضَ فيها آراء المُربِّين الغربيِّين، ولكنَّهُ لم يستطعْ إصدار أكثر من 12 عدداً، وتكبَّدَ في مشروعِهِ الصحفيِّ خسارةً قدْرُها ثلاثةُ آلافٍ من الروبلاتِ.

كانَ غرضُ تولستوي إصلاحياً: فهُوَ يريــــدُ أنْ يُحققِّ نهْجاً في التعليمِ، يتبيَّنُ نجاحُهُ للنَّاسِ في روسيةِ، فيــأخذونَ بــهِ، لأنَّ إصْـــلاحِ التعليـــمِ ومناهجِهِ في رأي تولستوي هُوَ السبيلُ الأقْصــرُ لتحقيقِ تقدُّمِ الوطنِ، وقد سرَّهُ أن تنْتشـــر فِكــرةُ مدارسِهِ، وأنْ تعْمد وزارة المعارفِ إلى إعانتِــهِ، وإن لمْ تكنْ تسلمُ بآرائهِ كلِّها.

كانَ تولستوي يوالي تَجاربه في حقلِ التربيَّةِ والتَّعْليمِ في وقْتٍ كانَتْ فيهِ مُشكلاتْ التحْكيمِ بينَ الفلاّحين والملاّكين مثارَ إزْعاجٍ وإتعابٍ لهُ، فقـد نقمَ الأُمراءُ المالِكون منهُ عطفهُ على الفلاحيـــنَ، إذا حكمَّوه بينهُمْ، وازداد طمــعُ الفلاحيــن فـــي عطفِهِ، فأرادوا منهُ أنْ يُعطيهمْ فوق حقِّهمْ، فلمَّـــا

لمْ يُجِبهُمْ غضِبوا منْهُ، وراحوا ينالونـــــهُ بسُــوء القولِ، فلمْ يجد بُدّاً آخر مِنْ أن يستقيلَ من مُهمّــةِ التَّحْكيمِ بينَ فريقيْنِ لايرْضى كلاهُما بأحْكامِــــهِ، فأُعفي منْها، وقدْ بلغَ بهِ السأمُ حدّاً دفعَـــــهُ إلـــى القِيامِ برِحلةٍ إلى **سُهولِ سمار شرقيَّ الفولجا** في شهْرِ أيار 1862 وعلِمَ وهُوَ في إقليمِ ســمارا **أنَّ فريقاً منَ الشُّرْطةِ قدِ اقتحموا بيتــهُ ومدْرسـتَهُ على أعينِ النَّاسِ، ولم يتركوا جانِباً فيهما مــن غيرِ تفتيشٍ دقيقٍ**، وقدْ عبثتِ الشُّرْطةِ بمذكراتِــهِ الخاصّة وبِما لديهِ من رسائل، وكان ارتياعُ أختِهِ وعمَّتِهِ للحادِثِ كبيراً، وقد أحسَّ تولستوي بجرحٍ عميقٍ في كبريائهِ، **فــأعْلنَ أنَّـــهُ إذا لـــم يتلـــقَ ترضيةً علنيةً عمّا لحِقَ بهِ مِنْ إهانــــةٍ عامَّــةٍ**

فسيبيعُ ضياعَهُ ويغادرُ وطنـــــهُ، وكتــب إلـــى القيصرِ كِتاباً بذلك، حملهُ أحدُ حُرَّاسِهِ إليْهِ، وقــد استجابَ القيْصرُ لشكْوى تولستوي وحقّقَ لهُ مــا طلب من ترضيةٍ، وكانَ أوّلَ انتصـــارٍ للكــاتبِ العظيمِ على الحكومةِ في وطنِهِ، حققـــهُ بفضــلِ شجاعتِهِ الأدبيَّةِ، **إذ أمرَ الإسكندرُ الثاني حـــاكم ولايةِ تُولا بأنْ يذهبَ إلى تولستوي ويعبِّرُ لـــهُ عنْ أسَفِ القيصرِ لما وقعَ لهُ!**

وطابتْ نفسُ تولستوي باعتِذارِ الحاكمين لهُ، وسكتَ عنْهُ الغضبُ، وأزمَعَ أن ينصرفَ بجِـــدٍّ إلى البحثِ عن الزوجـــةِ التـــي تُعيْنُـــهُ علـــى الاستِقْرارِ وتكوينِ أسرتِهِ الصغيرةِ، وقـــد بلـــغَ الرابعة والثلاثين من عُمرهِ!

ولمْ تطُلْ حيرةُ تولستوي هذهِ المـــرَّةَ، فقــدْ أقدمَ على خُطبةِ سونيا (أوصوفيا) وُسطى بنــاتِ الدكتور (بيرز) الذي يعيشُ مـــع أســرتِهِ فـــي موسكو ــ كما قدَّمنا ــ وكـــانَ رجُـــلاً موفـــورَ الرِّزْقِ، لهُ وظيفةٌ في البلاطِ، وقد مُنِحَ لقَبَ النُبْلِ جزاء على خدماتِهِ في القصْرِ الإمـــبراطوري، وقدْ علَّمَ بناتهِ الثــلاث علـــى أيــدي المعلِّميــن والمعلِّماتِ من الألمان والفرنســيين، ليُصبْحــنَ معلِّمات يكسَبْنَ قوتُهُنَّ بعملِهنَّ، وكـــانتْ سُــونيا وُسطى الثلاثِ فتاة جميلةً ذات عينينِ رمـــاديَّتيْنِ واسِعتيْنِ، ووجْنتَيْنِ مُتوردِّتيْنِ، وكـــانتْ مُولعــةً بالأدبِ والتصويرِ والموسيقى، وعِنْدمـــا تمَّــتْ

خِطبةُ تولستوي لَها، وقبِلتْ بهِ زوْجاً لَها، **دفَــعَ إليْها مذكّراتِهِ لتقْرأها وتطَّلِعَ منْها على حقيقتِـهِ وتعرِفَ أنَّهُ ليسَ نقِيَّ السِّيرةِ مِثْلها**، وســهرتْ سونيا إلى الصباحِ مع المُذكّراتِ، وبكت كثــيراً للصُّورة التي ترسمُها صفحاتُها للزَّوْجِ المُقبــلِ، وعِنْدما أقبلَ تولستوي عليْــها ســألها الصفْــح والمغفِرة، فأجابتْهُ إليهِما، وبكتْ وبكى معها.

وتمَّ الزفافُ، وحملَ تولستوي عروسهُ فــي عربةٍ فخمةٍ إلى (ياسنايا بوليانا) لِقضـــاءِ شــهرِ العسلِ فيها، وبدأ الزوجُ يتحدَّثُ في مذكّراتِهِ عنْ **سعادتِهِ الزوجيةِ وحُبِّهِ لعروسِهِ الفاتِنةِ**، وكتبــتْ الزَّوجةُ إلى أختِها تصِفُ لَها ســعادَتَها وحُــبَّ

زوجها لَها "حُباً بلغَ من القوَّةِ حدًّا تخجلُ وتفزعُ مِنهُ ، لأنَّها لا تتبيّنُ لهُ سبباً!"

كانتْ السَّعادةُ تغمرُ بأجنِحَتِها الزَّوجينِ الحبيبيْنِ، وفي حزيران عامَ 1863 **رزُقا بغُلامٍ سمّياهُ (سيرجي)**، فازْدادتْ بهجةُ الأسرةِ بهِ واحتفلَ تولستوي بعيدِ ميلادِ زوجتِهِ احتفالاً صاخِباً، فازدادتْ تعلُّقاً بهِ، وانصرفَ الزَّوْجُ إلى العِنايةِ بضيْعَتِهِ وأمْلاكِهِ، **وكانتْ الكونتسُ تولستوي تساعدُهُ** في تدبيرِ شُؤونِهِ الماليَّةِ، وتنْهضُ بدورِ ربَّةِ البيْتِ على نحْوٍ يستدعي الإعْجابَ، وكان على تولستوي وقدِ اطمأنَّ إلى حياتِهِ أنْ ينصرِفَ إلى فنِّهِ ليَبْلُغَ بهِ القمَّةَ.

الباب الرابع

تولستوي في أوجِ فنِّه وروائِعِه الأدبيةِ

1863 — 1877م

1

بدأ تولستوي بعدَ زواجِه مرحلةً جديدةً مـــنْ حياتِه، فزوجتُهُ امرأة تُحسِنُ التَّدْبيرَ، وقدْ دفعتْـــهُ إلى أنْ يتخلَّى عن المشاغِلِ التي لا تـــرى لـــها جدْوى، مثل المدرســـةِ ومخالطـــةِ الفلاّحيـــنَ، لينصرِفَ إلى تدْبــيرِ أمــورِ ضيْعتِـــهِ وتنْظيـــمِ إيراداتِها، فأصْبحَ الرجلُ يُعنى بتربيـــةِ الخيـــلِ والضأنِ والأبقارِ والخنـــازير وخلايـــا النحْـــلِ،

ويزرعُ الحدائقَ ويُنشئُ الغاباتِ، ولم ينْسَ مع ذلكَ مُوالاةَ عملِهِ الفنيِّ في الكتابةِ، وقدْ نشرَ قصتَهُ **(أهل القوقاز)** في مطلعِ عامِ 1863 بعدَ أنْ ظلَّ يُعيدُ النظرَ في كتابتِها مدَّةَ عشْرِ سنواتٍ، فجاءتْ آيةً من آياتِ الأدبِ الرُّوسيِّ، وعدَّها النُّقادُ خيْرَ ما كتبَ تولستوي قبْلَ أن يبلغَ أوْجَ فنِّهِ العظيمِ في روايتيْهِ الرائعتَيْنِ: (الحربُ والسلامُ) و (أنا كارنينا).

أمّا **(الحربُ والسّلامُ) فقد أمضى ستَّ سنواتٍ في كتابتِها**، وكانتْ زوجتُهُ تعاونُهُ في نقلِ ما يكتُبُ ومراجعتِهِ، وقد بذلَ المؤلفُ في تأليفِ (الحرب والسلام) جُهوداً جبّارة، إذ **أربتْ قصتُهُ على ألف صفحةٍ**، وكانَ يجدُ في تشجيعِ

زوجتِهِ وعونِها سعادةَ نفْسهِ وراحتَها. وكتبتْ في ربيعِ عام 1867: "لقدْ ظلَّ ليون يكتــــبُ طــوالَ الشِّتاءِ، وإنَّهُ لشديدُ الاهتياجِ والانْفِعالِ، تمتلـــــئ عيناهُ أحياناً بالدُّموعِ، وإنِّي لأعتقِدُ أنَّ قصَّتَهُ هذِهِ سوفَ تكونُ أعجوبةً".

وأصبْحَ تولستوي يُنفِقُ أكثرَ وقتِهِ في الكتابةِ وقد أقْبَلَ على إنْجازِ روايتِهِ الضخْمةِ بحماســـةٍ، وكانَ يزورُ مواقِعَ المعارِكِ التي يصفُـــــها فـــي قصَّتِهِ: زارَ في خريـــفِ 1865 مكـــانَ موقِعـــةِ بورودينو، ودرس بعُمْـــقٍ كيـــف دارتْ رحـــى المعركةِ، وسعى إلى مقابلةِ من بقيَ علـــى قيـــدِ الحياةِ مِنَ الذينَ شاركَوا في تلك المعْركةِ التـــي وقعتْ عام 1812، كما كـــانَ يـــزورُ المتـــاحِفَ

والمكتباتِ لمُراجعةِ الكُتب والمخْطوطاتِ التـــي لها صِلةٌ بعَهْدِ الإسكندرِ الأوّلِ، وما كان للنَّـــاسِ في عصرِهِ من نزعاتٍ سياســـيَّةٍ أو فكريَّـــةٍ أو اجتماعيَّةٍ، ليستمِدَّ إطاراً واقعياً لأحْداثِ روايتِـــهِ الخالِدةِ.

إنَّ موضوعَ روايةِ الحربِ والسلامِ هو ذلكَ الهجُومُ الهائلُ الذي قامَ بهِ نابوليونُ على روسـية إذ اقتحَمَ أراضيها، مواصِلاً زحْفَهُ الكبيرَ حتَّـــى وصلَ إلى عاصِمتها موسكو، ثُمَّ ارتدَّ مُنْســـحِباً، خائباً مقهوراً، مهْزوماً لأوّلِ مـــرَّةٍ فـــي ســـجلِّ حُروبِهِ الكُبرى، وكانت هزيمتُهُ هذه بدْءَ سـقُوطِهِ وأفولِ نجمِهِ، ولمْ يكُنْ سببَبُ هزيمتِهِ اصطِدامـــهُ

بجيشٍ أعظمَ من جيْشِهِ، وإنَّما لأنَّهُ واجَهَ شعْباً اجتمعتْ كلِمتُهُ على ألا يُقْهَرَ، وأنْ يرُدَّ المُعتدي المُغيرَ على أرضِهِ ويُحرِّرَها من الغُزاةِ!

لمْ يُعالجْ تولستوي هذا الموضوعَ على النسقِ الروائيِّ المعْروفِ الذي يتطلَّبُ بسْطَ الموْضوعِ ثُمَّ الوُصولَ إلى النتيجةِ، بل سلَكَ فيهِ أسلوباً قريباً مِنَ الملاحِمِ الشعريَّةِ التي أبْدعَها خيالُ الأقدمين، واستَطاعَ بذلك أن يُصوِّرَ في روايتِهِ حياة أمَّةٍ في فترةٍ عصيبةٍ منْ فتراتِ حياتِها، وقدْ وصَفَ الكاتِبُ العبقريُّ صُمودَ الشَّعْب الرُّوسيِّ في وجْهِ الغَزْوِ بإتْقانٍ بلغَ أقْصى ما وصلَ إليْهِ طُموحُ فنَّانٍ قبْلَ تولستوي

أو **بعده**. وقدْ أعارَ شخصيّات روايتِــــهِ ملامِــحَ حيّةً لأشخاصٍ عرفهُمْ الكاتبُ في الحيـــاةِ، مــنْ أفرادِ أسرتِهِ وأقاربِهِ وأصدِقائهِ ومعارفــهِ، وقــدِ اتَّفق النُقّادُ على أنَّ شخصيَّةَ (بيير) في الحــربِ والسلامِ فيها ملامِحُ كثيرة مِنْ صورةِ تولســتوي نفْسِهِ، وأنَّ شخصيَّةِ (ناتاشا) الصغيرة المرحــةِ فيها مزيجٌ منْ ملامِحِ زوجتِهِ (ســونيا) وأختِــها (تانيا) وكانتِ الأختُ الصغيرةُ عزيـــزة علــى تولستويَ حتَّى إنَّها لتُثيرُ أحْياناً غـــيْرةَ الأخــتِ منْها على زوجِها.

أمَّا الشخصيّاتِ التاريخيَّـــةُ الحقيقيَّــةُ فــي الرِّواية، مثلُ الإســـكندرِ الأوَّلِ وكوتــوزورفَ

واسبرانسكي ونابوليون بونابرت، فقدْ حرَصَ تولستوي أن يُعيرها ملامِحِها الواقعيَّةِ، إلاَّ أنَّ صورة نابوليون كانتْ تشملُ نفائِصَهُ وتتغافلُ عنْ مزاياهُ، ويبدو أنَّ تولستوي تعمَّدَ ذلك، تقويةً لملحمَتِهِ الوطنيَّةِ ودَعْماً للقوميَّةِ الروسيةِ.

والبطلُ الحقيقيُّ في ملحمةِ (الحربِ والسلامِ) هُوَ الشعْبُ الروسِيُّ كلُّهُ، مجتَمِعاً وراء هدفٍ واحِدٍ في كِفاحِهِ المجيد في وجْهِ العدوِّ الفاتِحِ، وتدُورُ أحداثُ الرّوايةِ لتصوِّرَ حروبَ نابوليون طوالَ عشرِ سنواتٍ (من عامِ 1805 إلى عامِ 1815) فوقَ مسرَحٍ هائلٍ يشْملُ الأرْضَ الرُّوسيّةَ كُلها ورقعةً كبيرةً من أوربةِ، ولولا

قدرةُ تولستوي الفنيَّةُ الفذّةُ وعبقريّتُهُ المُبْدِعةُ لما استطاعَ أنْ يجْمعَ في كُلٍّ واحدٍ منسجمٍ ومُترابطٍ جُمْلةَ تلك الأحْداثِ في خِلالِ تلك السنواتِ العشرِ، فوْق ذلكَ المسرحِ الهائلِ المُترامي الأطْراف، والنُّقّادُ يعدُّونَ رائِعة تولستوي هذِهِ مُعْجزة فنِّيةَ، ويُسمُّونها (الإلياذة الحديثة) ويعدُّونها أعظمَ روايةٍ عالميَّةٍ أبدعتْها عبقريّةُ فنّانٍ عظيمٍ، وهي تُمثِّلُ أسمى ما وصلَ إليْهِ الفنُّ القصصيُّ في روسية في القرْنِ التاسِعَ عشرَ، وهو عصرُ نبوغِ فنِّ الرِّوايةِ، بلْ هي إحْدى آياتِ هذا الفنِّ في العالمِ كلِّهِ، ويعُدُّها بعضُهُمْ أعظمَ قصّةٍ ظهرتْ في أدبِ الدّنيا قاطبةً.

لقد بلَغَ تولستوي في رائِعتِه الخـــالِدة قمَّـة مجدِهِ الأدبيِّ، وأصبَحَ مؤلِّفُها مِنْ أجْلِـها أعظَـمَ كاتِبٍ في عصْرِهِ، وحقَّقَ لنفْسِهِ بِها الخلودَ علـى مرِّ الأجْيالِ.

2

بلغَ تولستوي أوْج فنِّهِ في روايةِ (الحــــربِ والسلام) وكانَ عليْهِ أن يُوالي الجهْدَ للاحتفـــاظِ بالقمّةِ التي وصلَ إليـــها، فـأخذ يبحــثُ عــن موضوعٍ جديدٍ لروايةٍ أخرى، وقد خُيِّلَ إليْهِ حيناً أنَّ شخصيةَ القيصر العظيم بطرسَ الأكبرَ تُقــدِّمُ إليْهِ مادَّة غنيَّة لعملٍ فنِّيٍّ كبــيرٍ، فظــلَّ طــوالَ سنتين يُطالِعُ كلَّ ما كُتِبَ عنْهُ، ثُمَّ انْصرَفَ عــنِ الموْضوعِ كلِّهِ، لأنَّهُ وجَدَ في إصْلاحاتِ القيصـرِ التي قامتْ على إدْخالِ النُّظمِ والتقــاليدِ الغربيَّــةِ إلى روسية إفْساداً لفضائلِ الرّوسِ القديمةِ، وليْسَ في إمكانِهِ أنْ يَعُدَّها أعمالاً جليلةَ!

وانْهمَكَ تولستوي حيناً في قِراءةِ الفلسفةِ، وكانَ تشاؤمِ شوبنهاور ينالُ إعْجابَهُ ويدفعُهُ إلى إطالةِ التأمّلِ والاستسلامِ للهُمومِ، وساءتْ صِحتُهُ واشتدَّ إحْساسُهُ بالتّعبِ وبحاجتِهِ إلى الراحةِ، **فسافرَ مع بعضِ أفْرادِ أسرتِهِ إلى جنوبِ القوقازِ**، صيفَ عامِ 1871 وقضى في سمارا مدَّة شهْرينِ، وأمْضى أوقاتاً هانئةً **في مُحيطِ قبائلِ الباشكيرِ**، فكانَ يلبسُ ملابسهُمْ، **ويتكلّمُ اللغةَ التتريَّةَ التي تعلّمها في الجامِعةِ**، في تفاهُمِهِ معَهُمْ، ويعيشُ في خيامِهِمْ عيشةً بدويَّةً، ويأكُلُ طعامَهُمْ وقوامُهُ لحمُ الضأنِ كُلَّ يومٍ، كما كانَ يشربُ لبن الأفراسِ المُخمَّرِ، وكانَ يجِدُ في كُلِّ ذلك بهْجةَ لروحِهِ ومُتعةً لنفْسِهِ، وكانَ يُوالي

الكِتابةَ إلى زوجتِهِ ليحدِّثَها عنْ حياةِ تلكَ القبائلِ وأحْوالها وطباعِها وعاداتِها، وبلغَ مِنْ إعْجابِهِ بتلكَ الحياةِ الفطريَّةِ الساذجةِ للنَّاسِ هُناكَ أنِ اشترى إحْدى الضِّياعِ في تلكَ الجِّهاتِ، ليأتي إليْها في الصيْفِ مع أُسرتِهِ.

عادَ تولستوي من القوقاز إلى (ياسنايا بوليانا) ليعاودَهُ السأم، السأمُ من حياتِهِ ومن كلِّ ما يُحيطُ بِهِ، وأحسَّتْ زوجتُهُ أنَّ شيْئاً ما طرأ على حياتِهِما الزوجيّةِ فكتبتْ في مذكّراتِها: "لقد فقدتُ إيماني الشديد بالحياةِ والسعادةِ، إنَّ ليون لمْ يعُدْ ذلكَ الذي عهدتُهُ مِنْ قبلُ، وهو يقولُ: إنّها الشيْخوخةُ، وأنا أقولُ: إنَّهُ المرضُ! ولكنَّ هذا الشيء كيفَما كانَ أمرُهُ قدْ وقَعَ بيْننا!" ولم تكُنْ

الكونتسُ مُخطِئةً في هواجِسِها، فقدْ كان تولستوي ــ كما عرفنا مِنْ مذكراتِهِ أيْضاً ــ **شديد التّفكيرِ في تِلْك الأيّام بإخفاقِهِ في زواجِهِ، وشكواهُ مــن وحدتِهِ العقليَّةِ والروحيَّةِ.**

وانصرفَ تولســتوي إلــى **وضــعِ كتــابٍ لمُطالعةِ الأطْفالِ**، جعلَ عنوانهُ (أ ب ث) ويتألَّفُ من عدَدٍ منَ القِصصِ، بنى بعضها على مشــاهدَ من حياتِهِ، واستمدّ بعْضَها الآخر مِــنْ مصــادرِ هنديَّةٍ وعربيَّةٍ وغيْرها، وحاولَ أن يُطبِّقَ فيــــها آراءهُ في تربيةِ الطِّفْلِ، وكانَ يحلـــمُ أن يُصبِــحَ كتابُهُ أداة لتنشئةِ الأطْفالِ في روسية عليْهِ، جيــلاً بعد جيل. وعندَّما صدرَ الكتابُ في أواخِرِ عــامِ 1872 كثُرَ نقدُهُ في الصُّحفِ، ولمْ يلــقِ ذُيوعــاً

وانتِشاراً في ذلكَ الحينِ، ولكنَّهُ سـيعُمٌّ انتشـارُه فيما بعدُ، **ويُصبحُ خيْرَ كتابٍ لتعليمِ الأطْفالِ في روسية!**

لم يلبثْ تولستوي أن اهتدى إلى موضوعِ روايتِهِ الجديدةِ (أنّا كارنينا) فانكبَّ على كِتابتِها، في هذا العامِ، وقدْ بلغَ فيهِ الرّابعةَ والأربعينَ مِنْ عمرهِ، وابتهجتْ زوجتُهُ بعودةِ الكاتِبِ العبقريِّ إلى حقْلِ إبداعِهِ العظيمِ.

تركَ تولستوي في رائعتِهِ الجديدةِ الموضوعاتِ التاريخيَّة، وبنى الروايةَ على موضوعٍ اجتماعيٍّ **يُعالِجُ مشكلةً خطيرةً، هي مشكلةُ الزَّواجِ غير الموفَّق**، وكان إقليمُ (تولا)

شهِدَ قبل سنتيْنِ **حادِثاً مأساويّاً** أثار أهْلَ الإقليمِ، وكانَ موْضوعاً لتعْليقاتِهِمْ وأقْوالِهِم، وخلاصتُهُ أن رجُلاً كهْلاً من أصْحابِ الضِّياعِ أتى بِفتاةٍ مِنْ قريباتِهِ لترْعى أمور بيْتِهِ بعْدَ وفاةِ زوجتِهِ، وكانتِ الفتاةُ صغيرةُ السّنِّ جميلةُ الطّلعةِ ، فأحبّها الكهْلُ فاستسْلمتْ لهُ وأحبتْهُ، وهي تظنُّ أنّهُ سيظلُّ وفيّاً لها، ولكنّهُ لمْ يلبثْ أنِ اتّخذَ مُربيّةً فرنسيةً لأولاده، وكانتْ فتاةٌ ذات جمالٍ وسحْرٍ، فانْصرَفَ الكهْلُ إليْها وأهْمل قريبتُهُ التي أكلتِ الغيرةُ قلبَها، فلمّا تصدّتْ لهُ طردَها من بيتِهِ، فهامتْ على وجْهِها في المزارِعِ والحُقولِ، واستوْلى عليها اليأسُ فألقتْ بنفسِها أمامَ القِطارِ، ووضعتْ بانتِحارِها نِهايةً فاجعةً لمأساتِها

الحزينة، وانتشَرَ النّبأُ في الإقليمِ، وجاء تولستوي إلى المحطّةِ، حيثُ كان يجــري التَّحقيــقُ فــي مصرَعِها، وشهِدَ جثّةَ الفتاةِ المُنتحِرةِ، فأثَّرَ فــي نفسِهِ منظرُها، وظلَّ أثرُ الحادثِ في نفسِهِ حيّـــاً طوالَ سنتينِ، ثُمَّ **استوحى مِنْهُ موضوعَ روايَتِـهِ الجديدةِ.**

غير أنَّ فنَّ تولستوي العظيمَ **جمَعَ في قـصَّةِ (أنا كارنينا) بين ثلاثِ أسرٍ: الأولـــى** ــ وهــي أهمُّها في الرِّوايةِ ــ تمثّلُ الزّواجَ غيرَ المُوفَّــقِ، الذي ينتَهي بمأساةٍ فاجعةٍ، **والثانيةُ** تُمثِّلُ الـزّواجَ العاديَّ، حيثُ الزوجةُ امــرأةٌ وفيَّــةٌ مخلِصــةٌ، والزوجُ بعْدَ سنواتٍ من حياتِهِ معَها لايتورَّعُ عن خيانتِها في السّرِّ مع نِســاء أُخريــات، ويــتركُ

زوجتَهُ الذابلَةَ لتربيةِ أولادِهـا وتدبـيرِ شُـؤونِ البيْتِ، **والثالثةُ** تُمثِّلُ الزَّواجَ السَّعيدَ المُتكـافيء الموفَّقَ، فالحُبُّ البريءُ الطَّاهِرُ يجْمعُ بين فتـاةٍ جميلةٍ نقيَّةِ الصَّفحةِ وبيْنَ شابٍّ من نُبلاء الرِّيـفِ لايعْرِفُ مساوىء حياةِ المُـدنِ ولا يرْضاهـا، وينْتهي الحُبُّ المُتبادلُ بين الطرفيْنِ إلى تكويـنِ أسرةٍ سعيدةٍ يجمعُ بينهُما رباطٌ مقدَّسٌ لا ينفصِمُ!

إنَّ الجمْعَ بيْنَ هذهِ الأُسرِ الثَّلاثِ في خيـوطٍ مُتشـابكَةٍ وسـيلةٌ فنيَّـةٌ لإبـرازِ التَّناقُضـاتِ وإيضاحِها، وإغْناءِ الخطِّ الأساسيِّ للرِّوايةِ، وهُو حِكايةُ (أنا كارنينا) والأسرة الأولى التي تُمثِّـلُ مأساتَها التعسةِ: فأنا كارنينا الفتاةُ المترفةُ الناعِمةُ

التي تعيشُ في أرْقى الأوْساطِ التي عرفَتْها روسية القيصريَّةُ، تتزوَّجُ مِنْ رجُلٍ مُتقدِّمٍ في السِّنِّ، واسعِ الجاهِ والثَّراءِ، بغيةَ أنْ تُؤمِّنَ لنفْسِها حياة ناعِمةً مُترفةً، بعْدَ زواجِها، غيْرَ أنَّ الزَّوجَ لم يكُنْ ينظُرُ إلى زوجهِ إلاّ على أنَّها متاعٌ يُكملُ بِهِ مظاهِرَ الجاهِ والثَّروةِ العريضةِ لديْهِ، وتُدْرِكُ الفتاةُ بعدَ زواجِها حقيقةَ وضْعِها، فتثُورُ في أعْماقِها، وتُقدِمُ على التَّعلُّقِ بشابٍّ من النُّبَلاءِ، وتندفِعُ في علاقَتِها الآثِمةِ بِهِ، تعْويضاً عمَّا تُعانيهِ في حياتِها الزوجيَةِ الفاشِلةِ، وهِيَ تحسبُ ذلك انتِقاماً مِنْ موقِفِ زوْجِها، وتسوءُ سمعتُها حتَّى تُصبحَ مُضغةً في الأفْواهِ، وتغْدو، علاقتُها

بعشيقِها خطراً يُهدِّدُ مُستقبلهُ، فيهْجُرُها، فلا تجدُ العاشِقَةُ المهْجورةُ بُدّاً من الانتِحارِ، فتُلْقي بنفسِها أمامَ عجلاتِ القِطارِ!

هذهِ هي رائِعةُ تولستوي الثانيةُ التي لقيتْ منذُ صُدورها إقْبالاً من القرّاءِ عليْها، وبذلكَ توطّدتْ مكانةُ مؤلِّفِها العبقريِّ العظيمِ في القِمَّةِ، وكان فراغهُ من كتابتِها في نيسان 1877 وقدْ غدا في التاسعةِ والأربعينَ من عُمرهِ.

كانَ تولستوي خلالَ السنواتِ الخمْسِ التي كانَ يكتُبُ خِلالَها (أنا كارنينا) يتردَّدُ في كُلِّ صيْفٍ على القرْيةِ التي اشتراها في سمارا، وقدْ عقدَ هُناكَ عدَداً من الصداقاتِ مع بعضِ

المُسلمينَ، ومنْهُمْ **محمّد شاه** الذي كـــان شـــديدَ الإعْجابِ بأمانتِهِ ودماثةِ طبْعهِ وحِرْصِـــهِ علـــى كرامتِهِ، وقدْ أوْكَلَ إليْهِ حِراثةَ أرْضِهِ والإشْـراف على ضيْعتِهِ، وفي صيْفِ 1873 **حصلتْ مجاعـةً في تلكَ البِلادِ**، لِسُوءِ المَحْصولِ خِـــلالَ عـــامَيْنِ مُتواليِيْنِ، فـــأودتْ بحيـــاةِ الكثـــيرين، فأرسَـــلَ تولستوي صيحةَ استِغاثةٍ نشرها فـــي صُحُـــفِ موسكو ، فانهالَتِ التّبرُّعاتُ على الإقليمِ الجـائِعِ، وكتبَ تولستوي إلى ابنةِ العمِّ ألكسندرا فحملـــتْ أخبـــارَ المجاعـــةِ إلـــى أوْســـاطِ القصْــــرِ الإمبراطوريِّ، وتبرَّعتِ القيصرةُ نفسُها بمبْلـــغٍ كبيرٍ، وبلغَ المالُ المتبرِّعُ بهِ من الشعْبِ مليونـــي

روبل، وأغيث النَّاسُ في تِلكَ الأصْقاعِ النائيـــةِ، وكانَ وجُودُ تولستوي هنـــاكَ رحمـــةً مـــن الله بعبادهِ، بعْدَ نِقْمةِ المجاعةِ المُدمرةِ.

وأصيب تولستوي خِلالَ هذِهِ السَّنواتِ أيْضاً بموتِ أكثرَ منْ واحِدٍ مـــن أولادهِ، كمـــا مـــاتتِ العمَّةُ تاتيانا، فكان حزنهُ لوفاتِها شـــديداً علـــى نفْسِهِ، وأحسَّ أمـــامَ فجـــائعِ المـــوتِ المتواليـــةِ بالخوْفِ والحيرةِ، وأصبحَ يُطيـــلُ التـــأمُّلَ فـــي مصيرِ الإنْسانِ وفنائهِ، ويُحاوِلُ أن يُغرِقَ أحْزانَهُ بانْغمارِهِ في العملِ الفلاحيِّ، كأنَّـــهُ واحِـــدٌ مِـــنَ الفلاّحين، وقدْ كانَ في صيْفِ 1875 في ســـمارا يعملُ بنفسِهِ مع الزُرَّاعِ فـــي أرضِـــهِ، ويُخـــالِطُ

الفلاّحين منَ النَّصارى الأورثوذكس، وترتـــاحُ نفسُهُ لِما بيْنَهُمْ وبيْنَ جيرانِهِ المسلمين مِنْ مــودَّةٍ وتسامُحٍ.

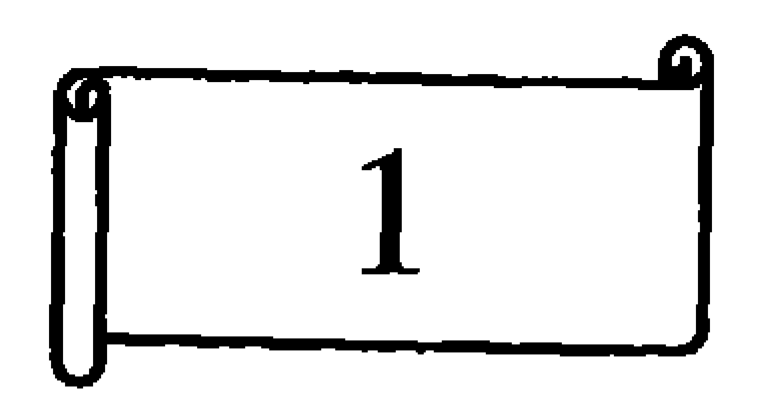
غيْرَ أنَّ استِغْراقِهِ في العملِ لمْ يُنْسِهِ شــقاءه الباطنيَّ الكبيرَ، فالكاتِبُ العبقريُّ يُواجِــهُ أزمـــةً **نفسيَّةً طاغيةً** لايدري كيفَ يخرجُ مِنْها، وهُـــو دائِمُ التساؤلِ والبحْثِ عنْ تفسيرٍ لحياتِهِ التـــي لا يجدُ لها معنىً!

سنُرافِقُ تولستوي في طورٍ جديدٍ منْ حياتِهِ، ينتقِلُ فيهِ مِنْ رِحابِ الفَنِّ بعْدَ وصولِهِ إلى الأوْجِ فيهِ، إلى رِحابِ الدِّينِ والفلسفةِ، بحْثاً عن حـــلٍّ لأزمتِهِ النَّفْسيَّةِ الكبيرةِ.

الباب الخامسُ

تولستوي في رحاب الدينِ والفلسفةِ

1877 ــ 1910 م



تِسعُ سنواتٍ بعْدَ الانتِهاء من روايــــةِ (أنــا كارنينا) قضاها تولستوي في **البحْثِ الدينيِّ عَــنْ تفسيرٍ للحياة**، وقد استبدَ بهِ قلقُهُ النَّفْســيُّ حتــى خيفَ عليْهِ مِنْهُ: فهُوَ دائمُ الإطْراقِ، يدفِنُ وجْهَــهُ ساعاتٍ بينَ كفيْهِ، ويعتزِلُ زوجتَهُ، ويشيحُ عــنْ أبْنائهِ بوجْهِهِ، ويسهرُ ليْلهُ مفكِّراً حزيناً، يئِنُ أنين

المحمُومِ، وقيلَ إنَّهُ لمْ يبقَ بينهُ وبينَ الجُنُـــونِ إلاّ خُطوة واحدة! وهو لا يَني يتساءلْ: ما هذهِ الحياةُ التي أَحْياها وإلى أينَ المصيرُ؟

لقدْ أقْلَعَ الكاتِبُ الفنَّانُ عـــنْ كتابِـــةِ روائِـــعِ القصصِ الخالِدةِ، إذْ أصبحَ لا يرى فيها إلاّ لغْـواً وهُراء لا طائِل فيهِما واتَّجهَ بأفْكارِهِ نحْوَ الدِّيـــنِ ومسائِلِهِ، وأخذَ يتردَّدُ علـــى الكنيســـةِ ويُـــزاولُ الطُّقوسَ الدينيَّةَ، ويـــــزُورُ الأضْرحـــةَ وقُبـــورَ الأوْلياءِ، ويتْلو الكُتُبَ الدينيَّةَ، ولكنَّ قلقهُ البـاطنيَّ لمْ يهْدأ، وظلَّ إحْساسُهُ بشقائِهِ عظيمـــاً، وانكـــبَّ على صياغةِ أفْكارِهِ الدينيَّـــةِ، وكـــانَتْ زوجتُـــهُ تأسفُ لهذا الاتِّجاهِ الجديدِ في تفْكيرِهِ، وكتبتْ إلى

أختِها تصِفُ جهودهُ المضنيةَ في أبحاثِهِ الدِّينيَّـــةِ بقولِها: "كلٌّ ذلكَ ليُثبِـــتَ أنَّ الكنيســـةَ لاتُوافِــقُ الرِّسالةَ المسيحيَّةَ، مع أنَّهُ لايكــــادُ يوجــدُ فـــي روسية عشرةُ أشخاصٍ يهتمُّونَ بهذهِ المبــاحِث!! ولكنَّني لا أستطيعُ أن أعملَ شيئًا، وكلُّ ما أرجوهُ أن ينْتهي منْ هذا الطَّوْرِ في أقربِ وقْـــتٍ، وأنْ تزولُ هذِهِ الحالةُ كما تزولُ الأمْراضُ!".

وقدْ وصَفَ تولستوي **في كتابِهِ (اعـــتِرافي) هذهِ الأزمةَ الروحيّةَ** التي اكتوى بنارها، والتـــي أظْهرتْهُ على أنَّهُ كانَ على ضلالٍ في كلِّ ما تقدَّمَ منْ حياتِهِ، فكلُّ ماكانَ يتمسَّكُ حتّى اليـــوْمِ بِــهِ ويسْعى إليْهِ من عظمةٍ وثراءٍ وأُبَّهةٍ ومجْدٍ أدبــيٍّ

وشهرةٍ، كُلٌّ ذلك باطِلٌ، أما الخيرُ كل الخيْرِ فهو أنْ يعْملَ الإنْسانُ لِسعادةِ غيرِه، متواضِعاً راضياً بالفقْرِ، مُنكِراً للذّاتِ، ولهذا **كان على تولستوي أنْ يبْدأ في جهادِ نفْسِهِ، لتصْحيح ذاتِهِ**، والسَّيْرِ بِها في طريقِ الهدايةِ بعدَ طولِ ضلالٍ.

لقدِ اعترفَ تولستوي بصراحةٍ وشجاعةٍ بالصفحاتِ السوْداء من ماضيهِ، حينَ كان يشتركُ في الحُروبِ، وقتْلِ النَّاسِ، ويخوضُ المُبارزاتِ، ويُنفِقُ المالَ الذي كانَ يحصلُ عليْهِ من جهدِ الفلاّحين وكدِّهمْ في القِمارِ واللهْوِ والخَمْرةِ ومعاشرةِ النِّساءِ الفاسِداتِ، ويسلُكُ كلَّ سبيلٍ للفُسْقِ والعُهْرِ، ولا يعِفُّ عن المُراوغةِ

والخِداعِ! اعْترفَ بأنَّ حياتَهُ في تلكَ الأيّام كانتْ كلُّها كِذباً وسرِقةً وفِسقاً وزِناً وسُكراً وتمرُّداً وقَتْلاً، ومعَ ذلكَ فقدْ كانَ في نظرِ النَّاسِ الرجُلَ المُحْترمَ المُثقّفَ الفاضِلَ، وهو عِنْدما بدأ يكتُبُ، لا لِغرضٍ إلاّ لكي يُرضي غُروره، ويحصلَ على المالِ والشُّهْرةِ، كان مضطرّاً إلى مُسايرةِ رأي النَّاسِ، فيخفي (الخيْرَ) الذي يُحِبُّهُ، ويقولُ (الشَّرَّ) الذي يحبُّهُ النَّاسُ، ويعترِفُ تولستوي بأنَّهُ لقِيَ على أساسِ هذا الكذبِ والخِداعِ والنِّفاقِ كُلَّ نجاحٍ في كتاباتِهِ وفي تفكيرِهِ، **ثُمَّ استيْقظَ ضميرُهُ بعدَ طولِ نومٍ ليُدْرِكَ أنَّ الطريقَ التي قطعَها ليسَ فيها غيرُ الشّرِّ والضَّلالِ**، وأنَّ الحياةَ على

هذا المنْوال تافِهةٌ لا معنى لَها، وأنَّ عليْهِ أنْ يجِدَ تفسيراً لحياتِهِ ومصيرِهِ، وإلاَّ فما عليْهِ إلاَّ أنْ يضعَ نِهايةً لوُجودِهِ وبقائِهِ!

لقدْ كادَ تولستوي ييأسُ مِنْ حياتِهِ، بعد طُولِ بحْثٍ وتأمُّلٍ ودِراسةٍ، حتَّى اهْتدى في نِهايةِ المطافِ إلى **الإيمانِ بأنَّ الإنْسان جُزْءٌ مِنْ "غيرِ المحْدودِ" الإلهِ اللانهائي**، وأنَّ عليْهِ لكيْ يهْتدي إلى تفسيرٍ لحياتِهِ أنْ يحيا حياة صالحةً مُستقيمةً فاضِلةً، وأنْ يعْملَ ليكْسبَ خُبْزَ يومِهِ بعرقِ جبينِهِ، وليُحافِظَ على نفسِهِ وعلى جِنْسِهِ، **فيقْضيَ أيَّامَهُ في العملِ المُثمِرِ الصّالِحِ لهُ ولغيْرِهِ وللعالَمِ!**

وانكبَّ تولستوي بعدَ كتابِ (اعترافي) على أبْحاثِهِ الدِّينيةِ، وقامَ بدراسةٍ جادَّةٍ **للمُوازنةِ بينَ الأناجيلِ الأربعةِ**، وانتَهى إلى أنَّ المسيحيَّةَ في أصُولها البسيطةِ تُقدِّمُ تفسيراً عميقاً للحياةِ، يُوافِقُ أسْمى ما تصبُو إليْهِ النَّفسُ البشريَّةُ منْ مطالبَ، يُمكِنُ أنْ تُحقِّقَ لها الخلاصَ والسَّعادةَ على الأرْضِ، في هذِهِ الحياةِ الدُّنْيا، قبْلَ تحْقيقِ ذلكَ لَها في الحياةِ الأُخْرى، **على عكْسِ ما تُقدِّمُهُ عقيدةُ الكنيسةِ من تخريجاتٍ وتعْقيداتٍ يرْفضُها العقْلُ**، ولا يستريحُ القلْبُ إلى الإيمانِ بِها. فخُلاصةُ ما فَهِمَ تولستوي منَ المسيحيَّةِ أنَّ "**مملكةَ السَّماء**" ليستْ مكاناً أعِدَّ للمؤمنين الذين نجّاهُمْ إيمانهُمْ، ولكنَّها **حالٌ يمكنُ أنْ يحقِّقها**

على هذه الأرْضِ من يعيشُ وفقَ ما جـــاء بـــهِ المسيحِ، فتعاليمُ المسيحيَّةِ ترشدُهُ إلى هذا الكَمـلِ إرشاداً عمليَّاً يقومُ على العقْلِ، لا على الخيـــالِ والوَهْمِ. وقد لخَّصَ تولستوي غايةَ المســـيحيَّةِ كما فهِمها مِنْ تعاليم المسيحِ في خمسةِ أمـورٍ، إذا عمِلَ بِها المرءُ حقَّقَ مملكةَ السَّـــماء علـــى الأرْضِ وهِيَ:

1 ـ ألاّ يغضبَ الإنْسانُ.

2 ـ وأنْ يُعاشِرَ النّاسَ جميعاً بالحُسْنى.

3 ـ وألاَّ يقْربَ الزِّنا.

4 ـ وألاّ يُقسمَ قطُّ (أيْ ألاَّ يُؤدِّي يميناً على إطاعةِ أيَّةِ حكومةٍ، وأنْ يُحافِظَ على حُريَّةِ عقْلِـهِ وضميرِهِ).

5 ــ وألاَّ يُقاومَ الشَّرَّ بالعُنْفِ.

ولِهذا فتولستوي **يعتقِدُ أنَّ الكنيسة بعقيدتِها بعيدةٌ كُلَّ البُعْدِ عن روحِ المسيحيَّةِ الصحيحةِ.**

وليسَ عجيباً بعدَ حملةِ تولستوي على الكنيسةِ الرُّوسيّةِ وتفْنيدَ تعاليمها أنْ تُناصِبَهُ الكنيسةُ العداوةَ، وتعُدَّهُ خارِجاً عليْها، تُوصي الكهنةَ في مَنْشورٍ سِرِّيٍّ ألاَّ تُقامَ لَهُ في حالةِ موتِهِ المراسيمُ الدِّينيةُ المُعتادةُ!

أمّا تولستوي فكانَ يؤمِنُ بأنَّ روسية ستُدركُ يوْماً، ومعَها العالمُ كلُّهُ، أنَّهُ قدْ أدّى إلى أبناءِ المسيحيَّةِ أكْبرَ صنيعٍ بأنْ أراهُمْ المسيحيَّةَ كَما أرادها المسيحُ، لا كما زيَّفتْها الكنيسةُ!

2

وعِنْدما اغتيلَ القيْصرَ الاسكندرُ الثاني في عام 1881 عزمَ ابنُهُ وخليفتُهُ **الإسكندرُ الثالثُ** على تنفيذِ حُكْمِ الإعْدامِ في قتلةِ أبيهِ، وبيْنهُمْ امرأةٌ، فهبَّ تولستوي إلى اتِّخاذِ موقِفٍ مستمدٍ مِنْ فهْمِهِ لِتعاليمِ المسيحِ، بعدَمِ مُقابلةِ الشَّرِّ بالشَّرِّ، والتخلي عنِ العُنْفِ، **فوجَّهَ كِتاباً إلى القيْصرِ الشَّابِّ**، عنْ طريقِ رئيسِ المجْمَعِ المُقدَّس، **يسألهُ فيهِ أنْ يعْفُوَ ويصفَحَ**، ويُقابِلَ الشرَّ بالخيْرِ، وكانَ مِمَّا كتبَ في خِطابِهِ:

"إنَّكَ يا موْلايَ، لو فعلتَ ذلِكَ، ودعَوْتَ أولئكَ الرجالَ، وزودَّتهُمْ بالمالِ، وأرسلتهُمْ إلى

بلادٍ بعيدةٍ مثل أمريكا، ثمَّ أذعْتَ بياناً تبدؤه بهذِهِ الكَلِماتِ: إنِّي أقولُ لكُمْ أحِبوا أعْداءكُمْ، فإنِّي لا أعْلَمُ تأثيرَ ذلِكَ لدى الآخرين، ولكنِّي أنا، على قِلَّةِ شأني، سأصيرُ كلبَكَ وأغْدو عبْدكَ! ذلكَ العَملَ مِنْكَ يقْضي على جميعِ الشُّرور التي تتألَّمُ مِنْها روسية، ولسَوْفَ تذوبُ الثوْراتُ كما يذوبُ الشَّمْعُ في النَّارِ أمامَ القيْصرِ الذي يقْضي بشريعةَ المسيحِ!" **رسالةٌ شجاعةٌ وصريحةٌ**، ولكنَّ رئيسَ المجْمَعِ المُقدَّسِ احتفظَ بِها ولَمْ يرفعْها إلى القيْصرِ، إلى أنْ تمَّ إعْدامُ المُتآمرينَ، فأعادَها إلى تولستوي، مُتعلِّلاً بالظُروفِ القاسية التي أذهلتهُ عنْ كثيرٍ مِنْ شؤونِهِ، ومُشيراً إلى أنَّ عقيدةَ تولستوي شيء وعقيدتَهُ هو وعقيدةَ الكنيسةِ شيء

آخر! ويُقالُ إنَّ القيْصرَ علِمَ بالرِّسالةِ عنْ طريـقٍ آخر، فأبْلغَ تولستوي أنَّهُ كان يغتفِرُ الاعتداءِ لــوْ وقع عليْهِ، ولكنَّهُ وقعَ على أبيهِ فلا يســتطيعُ ولا يملكُ أنْ يعْفو عنِ المُعْتدين.

غيْرَ أنَّ الرسالةَ المُوجَّهةَ إلى القيصرِ دليــلٌ على أنَّ تولستوي غدا **مُفكِّراً حُرّاً ومُصْلِحــاً ذا رِسالةٍ**، ولوْلا مكانتُهُ الأدبيَّةُ العظيمةُ في روسـية يوْمذاك لنالهُ من عسْــفِ القيْصــرِ وحُكومتِــهِ، لموْقِفِهِ مِنَ الجُناةِ الثائِرين، ما نالَ غــيْرَهُ مــن ألْوانِ الأذى والنَّفْي والسَّجْنِ والتشريدِ.

وفي شتاءِ هذهِ السنة نفسِها (1881) رحَــلَ تولستوي وأسرتُهُ جميعاً عــنْ ضيْعتِــهِمْ إلــى موسكو، ليلتحِقَ أكْبرُ أولادِهِ سيرجي بالجامعــةِ،

ولتُتاحَ لِتانيا البيئةُ لإكْمالِ تربيتِها، واتَّخذتْ الأُسرةُ لسُكْناها منزلاً كبيراً، وخصَّصتْ للفيلسوفِ غُرْفةً واسعةً، لكنَّهُ لا يجدُ فيها الهُدوء النَّفْسيَّ الذي كانَ يجدُهُ في قصْرِهِ الريفيِّ، ولِهذا نجدُهُ في كثيرٍ من الأحْيانِ ينسلُّ منَ البيْتِ، مُرتدياً ملابِسَهُ البسيطةَ، ليسير طويلاً في التِّلالِ والغاباتِ المُحيطةِ بالمَدينةِ، ويُخالطَ العُمّالَ، ويتحدَّثُ إلى العامَّةِ، وقدْ وقعتْ عيْنا تولستوي على مظاهِرِ البؤسِ والشَّقاءِ في المدينةِ الكبيرةِ: جماعاتٌ مِنَ العُمَّالِ العاطلينَ يبْحثُونَ دُون جدْوى عن عملٍ، وحُشودٍ منْ ذوي الأسْمالِ الباليةِ، مِنَ الرِّجالِ والنساءِ والأطْفالِ الشحّاذينَ، يستْجدونَ المارَّةَ في الشّوارِعِ، والجوعُ والبرْدُ

القارص يفتِكان بهِمْ.. وكـــانتْ هــذه المنــاظِرُ البائسةُ تحُزُّ في قلْبِ تولستوي وتدفعُهُ إلى إطالــةِ التفْكيرِ في حالِ هؤلاءِ البائسين لاستجْلاءِ سِـــرِّ شقائِهِمْ ومعْرِفةِ السَّبيلِ إلى القضاء عليْهِ، وقـــدْ أعلَنَ في كتابِهِ (**ماذا عليْنـــا أن نفْعــلَ إذنْ؟**) أنَّ تعاسةَ أولئكَ الفُقراء الجائعين سببُها فـــي رأيــهِ **حُصولُ الأغْنِياءِ المُترفين على أكْثر مِنْ حاجتِهِمْ** مَنَ الطعامِ والمتاعِ، فهُوَ يقولُ: "إنـي عِنْدمــا أرى الآلاف منْ بني الإنسان فـــي مخــالبِ الجُــوعِ والبردِ والانحِطاطِ أفْهمُ، لابعقْلٍ ولا بقلْبٍ، بـــلْ بمجْموعِ ما فيَّ من حيـــاةٍ، إذْ أنـــا وآلاف مِــنْ أمثالي يأكلونَ أكثرَ من حاجتِهِمْ من طريِّ اللحْــمِ والسَّمكِ، ويغطّونَ دورهُمْ بالأقْمشـــةِ والســجَّادِ،

ومهْما يقولُ عُلماءُ العالَم بضرورةِ ذلِكَ فإنَّ وجودَ الآلافِ من الجائعينَ في موسكو هُوَ جريمةٌ ترتكِبُ، لا مرَّةً واحِدةً بلْ باستِمرارِ، وإنّني بِما أنا فيهِ من ترفٍ لا أحتملُ هذهِ الجريمةِ فحسْبُ، بلْ أشتركُ فيها!"

وعِنْدما عزمتِ الحُكومةُ على **القِيامِ بتعدادِ السُّكّانِ، تطوَّعَ تولستوي للعمل في سمولنسكَ وهُوَ أفقرُ أحياءُ المدينةِ**، ليرى كيْفَ يعيشُ البائِسون من سُكانِ هذا الحيِّ، وهُنا لمَسَ بيديْهِ ألْواناً من الشّقاءِ والتعاسةِ لمْ يكُنْ يعرفُها من قبْلُ، وأدْركَ أن الحالةَ الاجتِماعيَّةَ كُلَّها ينبغي أنْ تتغيَّر، وأنَّ الإحْساس ليْسَ هُو الوسيلة المُثلى لِمُساعدةِ الفُقراءِ المحْرومين، بلِ الوسيلةُ لذلِكَ أن

نُعلِّمَهُمْ العملَ ونُمهِّدَ لهُمُ السَّبيلَ إليْهِ، كما أدْركَ أنَّ **المالَ هُوَ أساسُ الشرِّ كُلِّهِ**، مهْما حاولَ الاقتصاديون تسويغ التملُّكِ! فامتلاكُ المالِ هُوَ أصلُ البلاءِ ومنبعُ الشَّرِّ!

وفي شُباط 1882 كتبتْ زوجتُهُ في مُذكّراتِها: "إنَّ كُلَّ شيء في موسكو عظيمٌ، لوْلا أنَّ زوجي يكرهُ حياة المُدُنِ ويقولُ إنَّها مليئةٌ بالرَّفاهيةِ واللهْوِ والكسلِ!".

وبَدأ الخِلافُ بيْن الزَّوجيْنِ يظهرُ للعيانِ، وقد سجَّلتِ الكونتسُ في مُذكَّراتِها بتاريخِ 25 آب 1882 ما يلي: "منذُ عشرينَ سنةً ماضيةً، كنْتُ شابَّةٍ وكنْتُ سعيدة، وكانتْ مُذكراتي تفيضُ بالحُبِّ لزوْجي، أمَّا الآن فإنِّي أجلسُ مهْمومةً،

أقْضي الليْلَ وحْدي.. لقدْ هجرني زوْجي إلى غُرْفةِ مكتبِهِ، وأصبحْنا نختلِفُ على أصْغرِ المسائلِ وأتْفَهِها، وقدْ فترتْ علاقتُهُ بي، وقالَ لي اليوم: إنَّهُ يودُّ مِنْ كُلِّ قلبِهِ أن يتْرُكنا، ولنْ أنْسى هذِهِ الكلِماتِ فقدْ مزّقتْ قلبي!".

والحقُّ أنَّ نظرةَ كُلٍّ مِنَ الزوْجينِ إلى الحياةِ أصبحتْ مُخالِفةً كُلَّ المُخالَفةِ للأُخرى، فقدْ كان تولستوي يجدُّ في طريقِهِ إلى تطْهيرِ نفْسِهِ والسُمُوِّ بروحِهِ، وقدْ أصبحَ يرتدي ثياب الفلاّحين الخشِنة، وينتعِلُ حذاء مِنْ أحذيتِهِمْ، ويكْثِرُ من مُخالطةِ الفُقراءِ، وقد حكمَ منْ كان يعرفُهُ من قبلُ مِنْ أصْحابِهِ بأنَّهُ قد تطوَّرَ **وأصبْحَ إنْساناً جديداً،** فهُوَ رقيقٌ بسيطٌ طيبٌ،

حكيمٌ في تصرفاتِهِ، لايحاولُ أن يفرضَ رأيـــهُ أو يضْغط على مُحدِّثِهِ لإقناعِهِ بصوابِ أفْكارِهِ! لقـــدْ أصْبحَ يُصْغي بوداعةٍ إلى اعتراضاتِ تورجنيــف عليْهِ هادئاَ باسِماً! إنَّهُ ليس بالكونت تولستوي الذي عرفْناهُ في شبابِهِ أبداً، فهُو قدْ وُلِدَ وِلادة جديـــدةً، بإيمانٍ جديدٍ، وقلْبٍ جديدٍ ومحبّةٍ جديدةٍ! هذا مــــا كتبهُ بولونيسكي عِنْدما رآهُ بعْد تطوُّرِهِ الكبيرِ.

أمَّا الكونتسُ تولستوي فكانَ يُحْزِنُها ويُؤلِمُها ما آل إليْهِ حالُ زوْجِها، وكــانتْ كثــيرةَ اللــوْمِ والعِتابِ لهُ، ولمْ تكُنْ قادرة على إدْراكِ ما يعتَمِلُ في نفْسِ زوْجِها من صِــراعٍ رُوحــيٍّ عميــقٍ، وعذابٍ وشقاء، وقدْ كانَ مرد شقائهِ إلى ثلاثــةِ أسْبابٍ: أولُّها أنَّهُ مهْما أكْثرَ مِنْ مُخالطةِ الفُقـراءِ

والفلاّحينَ، فهُوَ لا يُحِسُّ إحْساساً كامِلاً أنَّهُ واحِدٌ مِنهُمْ، **وثانيهما:** أنَّهُ وهو الذي يُؤمِنُ بأنَّ المالَ هو أساسُ الشَّرِّ، ما يزالُ واحِداً من كِبارِ المالِكين، فأيُّ تناقُضٍ كبيرٍ بيْنَ أقْوالِهِ وحقيقةِ وضْعِهِ **وثالِثُهما** موْقِفُ الحُكومة والكنيسةِ مِنْ كتبِهِ وآرائِهِ الدِّينيَّةِ والإصْلاحيَّةِ.

لقدْ كانَ أعْداؤهُ يُشَنِّعونَ عليهِ هازئينَ، ويُهاجِمون آراءه وأفْكارهُ الجديدةَ ويتَّهِمونهُ بالنِّفاقِ، وقدْ أحْزنَ ذلِكَ كلُّهُ قلْبَ صديقِهِ **تورجنيف** عليْهِ، **فكتَبَ إليْهِ** منْ فِراشِ موتِهِ في تموز 1883 رِسالةً يرجوهُ فيها أنْ يعودَ إلى رحابِ الفنِّ، وناداهُ بقوْلِهِ:

"يا شاعِرنا العظيم، يا لِسان هــذهِ الأرْضِ، أرضِنا الرُّوسيةِ، عُدْ إلى الأدبِ، فهُوَ موهِبتُــكَ الحقيقيةُ، اسْمعْ توسُّلَ رجُلٍ يمُوتُ!"

ولكنَّ تولستوي لايعُودُ إلى الأدبِ إلاّ بعْدَ أنْ يطمئنَّ قلبُهُ بالإيمانِ، ويتخلّــصُ مــن أزْمتِــهِ الرُّوحيةِ وعذابِهِ النّفْسيِّ، ويجدَ للحياةِ التي يحياها معنى يرضاهُ، وتفْسيراً تستريحُ إليْهِ نفْسُهُ القلقةُ.

وقدْ حاولَ تولستوي أن يتنازلَ عنْ أمْلاكِهِ، تنْفيذاً لِمبادِئِهِ، ولكِنَّ زوجتهُ أثارتِ الأُسرةَ كُلَّــها عليْهِ، ونشِــبَ نِــزاعٌ عــائليٌّ كبــيرٌ، وأرادتِ الكونتسُ أنْ تطلُبَ مِنَ المَحْكمةِ وضْــعِ أمــلاكِ زوْجِها تحْتَ الحِراسةِ، وهدَّدتْهُ مرّاتٍ بالانتِحارِ، وظلّتْ تُلاحِقُهُ بشكايَتِها وبُكائِها، وعِنْدما يئِسَ مِنْ

إقْناعِها، تركَ لها الثَّراء، ليحْيا هُوَ حياة الفُقَـراءِ، فجعلَ لها الولايةَ على ما يَمْلِكُ، والإفـــادةَ مِـــنْ إيراداتِ مُؤلفاتِهِ الصّادِرةِ حتّى عام 1881.

وهكذا أصْبحَ الفيْلســـوفُ يعيــشُ عيشـــةَ الزُّهّادِ، بعدَ أن تخلَّى عن ثرْوتِهِ لزوْجتِهِ، فحـرَّمَ على نفْسِهِ أكْلَ اللَّحْمِ رحْمةً بالحيوانِ، كما حـــرَّمَ الصَّيْدَ والخمْرة والتدخينَ، وانْصرفَ إلى العمـــلِ بيديْهِ، يزْرعُ حيناً، ويعْملُ في صُنْعِ أحذيتِهِ حينـــاً ويُكْثِرُ مِنْ مُخالطَةِ الفُقراءِ والمساكينِ.

3

في عامِ 1886 عادَ تولستويُ إلى فنِّهِ القصصيِّ، ليتَّخِذَ مِنهُ وسيلةً لإذاعةِ آرائِهِ وأفْكارِهِ، وقدْ أصبْحَ للفنِّ عِنْدهُ رسالةٌ يُؤدِّيها، وهِيَ خِدمةُ النّاسِ، ويبْدو أنَّ ضيقهُ بتعسُّفِ الرّقابةِ على مؤلَّفاتِهِ الفِكْريَّةِ ومنْعِ نشْرِها هُوَ الذي دفعَهُ إلى العودةِ إلى الفنِّ، بنشرِ قِصَّتِهِ (موْتِ إيفان إليتش) التي كتبَها في ذلِكَ العامِ، واستبْشَرَ النَّاسُ في روسية وأوربة بعوْدةِ الفنّانِ العبْقريِّ إلى مجالِ إبْداعِهِ الأكبرِ، وقدْ كتَبَ بعدَ ذلكَ مسرحيةً وعدَّةَ قصصٍ، مِنْ أهَمِّها (أنشودةُ كروتزر) وهيَ قِصَّةُ الزَّوْجةِ الخائنةِ، وقدْ أثارتْ

كثيراً مِنَ الصخَبِ واللَّغطِ، لتصوْيرِ العلاقةِ الجنْسيَّةِ فيها صورة حيوانيّةً ليْسَ الحُبُّ إلاّ طِلاء يُخفيها، وكانَ **للقِصَّةِ وقْعٌ سيٍّءٌ في نفْسِ زوجتِهِ، لأنَّ النَّاسَ أصْبحوا يربِطون بيْنَ القِصّةِ وحياتِها الزَّوْجيةِ**، فراحتْ تقسُو على زوجِها، ثُمَّ خطرَ لها عِنْدما منعَ الرَّقيبُ نشرَ القِصَّةِ، لاحْتِجاجِ الكنيسةِ عليْها، أن تتوسَّلَ إلى القيْصَرِ ليسْمحَ بنشْرِها، فإذا علِمَ النَّاسُ دوْرَها في السَّعي إلى نشْرِها لمْ يُصدِّقوا أنَّها المقْصودةُ بِما كتبَ زوجُها!

وأذِنَ القيْصرُ للكونتسِ تولستوي، فلمّا مثُلتْ بينَ يديْهِ لقيَها بكثيرِ من العَطْفِ، وباركَ عوْدةَ زوْجِها إلى الفنِّ، ووعدَها بالمُوافقةِ على طبْعِ القِصَّةِ الأخيرةِ في مُجلَّدِ أعْمالِهِ الكامِلةِ.

أمَّا زوْجُها فلمْ يرضَ عمَّا فعلتْ، كما كــانَ لا يرْضى عنْ كثيرٍ منْ تصرُّفاتِها، ولكنَّها كانتْ عنيدة في عمْدِها إلى كُلِّ ما يُضايقُهُ، وقدْ حــدثَ مرةً أنْ أخذَ بعضُ الفُقراءِ خشــباً مِــنْ غابــاتِ الكونتِ، فقدَّمتْهُمْ إلى المُحاكمةِ، ولمَّا بلغــهُ نبــأُ سجْنِهِمْ لمْ يستطِعْ أنْ ينامَ الليْلَ! **واشتدَّ الــنِّزاعُ بيْنَ الزَّوْجينِ** عام 1891 حينَ أرادتِ الكونتــسُ أنْ تقْسِمَ ثرْوةَ زوجِها بيْنها وبيْنَ أوْلادِها، وكــانَ تولستوي يُريدُ مِنْهُمْ أن يتنــازلوا عَــنِ الــثرْوةَ للفلاّحين، ولكنَّهُمْ لمْ يستجيبوا لإرادتِهِ، وقُسِّــمتْ الثروةُ، ورفضتِ ابنتاهُ ماري وتانيــا أنْ تــأخُذا نصيبيْهِما، استِجابةً لأبيــهِما، وكانتــا تُحِبَّانِــهِ

وتُؤثِّرانِهِ بشدَّةِ تعلُّقِهما بهِ، فسُرَّ الأبُ وغضِبتِ الأمُّ لموقفِهما.

وفي هذا العامِ **وقعتِ المجاعةُ في روسية** واستمرتْ مُدَّة سنتيْنِ، وقدْ بذلَ تولستوي كُلَّ جُهودِهِ لِتقْديمِ العَوْنِ إلى الجائِعين، وكتبَ يُطالِبُ بإنْصافِهِمْ ويُندِّدُ بالحُكومةِ، ويجْمعُ المالَ والرِّجالِ، وقدْ **جنَّدَ أولادهُ وبناتِهِ وزوجتَهُ لتخْفيفِ الكارثةِ على النَّاسِ**، من الجوْعى والمرْضى، وأقامَ هو نفسُهُ في الأقاليمِ الجائِعةِ، وكان يقولُ: "ليْسَ مِنَ العَدْلِ أنْ نَدَّعي أنَّنا نحْنُ الذينَ نُطْعمُ هؤلاء الجياعِ، لأنَّهُمْ هُمْ في الحقيقةِ الذين يُطْعِمونَنا" وقدِ احْتَملَ خِلال هاتيْنِ السنتيْنِ آلاماً حتَّى كادَ يفقِدُ ذاكِرتَهُ من التَّعبِ. وكان

يقْضي نهارهُ بيْنَ النَّاسِ، ومِنْ حولِــــهِ الكولــيرا والجُــدَري والتيفــوس والأمــراضُ الأُخْــرى، لايخافُ العدْوى ولا يشْكو الكــلال، كمــا **كــانَ يقْضي ليْلهُ في كتابةِ المقالاتِ للصُّحفِ**، يحُضُّ فيها القادِرينَ علـــــى الجُــودِ والعَمــلِ، ويُنــدِّدُ بالأغْنِياءِ الذين لا يَمُدُّون يــدَ العــوْنِ والنَّجْــدةِ للجائِعين، **وانْهالت عليْهِ التبرُّعاتُ من روســـيةَ وانكلترة والولاياتِ المتحدّةِ**، فأنشأ أعْداداً كبــيرةً مِنَ المطاعِمِ لتغذيةِ الجائِعين، وأحبَّــــهُ النــاسُ، ولكنَّ خصومهُ ازْدادوا كيْداً لهُ، وأشاعوا عنْهُ أنَّهُ **داعيةٌ خطيرٌ من دُعاةِ الثورةِ**، ودافعتِ ابنةُ العــمِّ (ألكسندرا تولستوي) عنْهُ أمامَ القيْصرَ، ووصفتْهُ بقولِها: "**عبقريٌ روسيةَ الأكبر**" وأجابها القيْصــرُ

بأنَّهُ لنْ يجْعلَ منْهُ شهيداً، فيكْسبَ بِذلكَ اسـتِنْكارَ العالمِ المُتمدِّنِ!

الحقُّ أنَّ تولستوي لمْ يكُنْ يوْماً منْ دُعـاةِ الثوْرةِ والدِّماءِ ومقاومةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، وهُـوَ القائِلُ: "نحنُ حقيقةً في حاجةٍ إلى ثورةٍ، ولكنَّـها ليْستْ ثورة دمويَّةً، بلْ ثوْرة في ضمائرِ الأغْنياءِ وفي قلوبِهِم!" فهُو داعيةٌ الإخاءِ والحُبِّ والإيمانِ والتعاطُفِ بيْنَ النَّاسِ، وعـدمِ مُقاومـةِ العُنْـفِ بالعُنْفِ، غيْرَ أنَّ تولستوي بمبادئهِ التي أذاعَـها بيْنَ النَّاسِ كانَ أوَّلَ منْ تحدَّى القيْصريَّةِ وهِـيَ في عُنفُوانِ قُوَّتِها، وتحدَّى الكنيسـةَ فـي أوْجِ سُلْطانِها، وبثَّ الشجاعةَ في قُلوبِ النَّاسِ، فكانَ بِكُلِّ ذلِكَ مُمهِّداً للثَّوْرةِ الاشتراكيَّةِ القادمةِ فـي

4

وفي عامِ 1895 بدأ تولستوي كتابةَ **رائعتهِ الفنِّــيَّةِ الثالثةِ (البعْثُ)** ونشرها في عامِ 1899 وسُــرعانَ مـــا تُرجمـــتْ إلى اللغاتِ الأوربيَّةِ، وذهَبَ لها صيْتٌ عظيمٌ، وتقومُ فكرةُ القِصَّةِ على أنَّ الــرَّجُلَ الآثِمِ إذا تخلَّى عن الفتاةِ التي أغْواها يكــونُ هُوَ المسؤولَ عمَّا تنْحدرُ إليْهِ ضحيَّتُهُ مِنَ السُّــقوطِ والرّذيلةِ، وقدْ كانتْ هذهِ الفكْرةُ تُرهِقُ ضَـــميرَ تولســـتوي، لِما كانَ مِنْهُ في شبابِهِ مِنْ إغْوائِـــهِ إحْـــدى الخادِماتِ، وما انْتهتْ إليْهِ بعدَ طرْدِها من انغماسٍ في الرَّذيلةِ والإثْمِ!

ويـــرى الباحِثونَ أنَّ **(البعث)** دُون رائعتي تولســـتوي الخالِدتيْـــنِ **(الحربُ والسلام)** و **(أنا**

كارنيـــنا) ولكنَّهُمْ يُؤكِّدونَ بأنَّ فيها مواقِفَ لاتقِلُّ فـــي روعتِها وجمالِها عن الرِّوايتيْنِ السابقتيْنِ: ففــيها صـــورٌ بهــيجةٌ منْ حياةِ تولستوي، أيّام الهوى والشَّبابِ، وفيها وصْفٌ لصِراعِهِ النَّفْسيِّ العنـــيفِ بيْـــن مَطالبِ جسمهِ وشهواتِهِ، ونَوازعِ رُوحِـــهِ إلى السُّموِّ والتَّطَهُّرِ، وفي الرِّوايةِ كثيرٌ مـــن آرائِـــهِ الإصْـــلاحيَّةِ وفلسفتِهِ في المرْحلةِ الأخـــيرةِ مِـــنْ حياتِه، مِنَ الدَّعْوةِ إلى الحُبِّ في العلاقـــةِ بيْـــنَ الـــنَّاسِ، وكالحمْلةِ على الكنيسةِ والسخْريةِ مِنْ بعْضِ طُقوسِها وشعائِرِها.

وعِندما أهلَّ القرنُ العِشْرون على الدُّنْيا كانَ تولســـتوي شيْخاً في الثانيةِ والسَّبعين، وقدْ تمكَّنَ

أنْ يصِــلَ إلى أوْجِ مجدِهِ الأدبيِّ، ويُصبحَ **أعْظَمَ كُــتّابِ القِصّــةِ فِــي القرنِ التاسعِ عشر**؛ وتعُمُّ شُهرتُهُ آفاقَ الدُّنْيا، فيتهافتُ على ضيْعتِهِ الزُّوّارُ مِــنْ أقاصِــي العــالَمِ، ويحمِلُ إليْهِ البريدُ آلافَ الرَّســائِلِ مِــنْ قُرّائِهِ والمُعجبين بفنِّهِ وعبقريَّتِهِ وأفْكــارِهِ ومــبادئِهِ، وقــدْ ظلَّ في بدايةِ القرْنِ العشــرين يُتابِعُ كِتابةَ القصصِ، ويُثْبِتُ بِها "**أنَّ الأسدَ الهرِمَ ما تزالُ لهُ قُوَّةُ مَخالبِهِ!**".

وخِــلال الســنواتِ العشــرِ التــي عاشَها تولســتوي مِــنْ هذا القرنِ، ظلَّ عبقريٌّ روسيةَ العظــيمُ يتحدَّى السُّلطاتَ، ويُرحِّبُ بالأذى الذي يأتــيهِ من الكنيسةِ والدَّوْلةِ، في صبرٍ واحتمالٍ، وفــي أيّــارِ 1904 **أعلــنَ سُخْطَهُ على الحربِ**

الرُّوسيَّةِ اليابانيَّةِ، ولمْ يُقرَّ ثوراتِ 1905 لأنَّها كانتْ قائمةً على العُنْفِ، وظلَّ الشِّقَاقُ بيْنهُ وبيْنَ زوجتِهِ على أشَدِّه، وكانَ أكْبر مصدرٍ لآلامِهِ في السَّنواتِ الأخيرة مِنْ حياتِهِ.

وفي عيد ميلادِهِ الثَّمانين (عام 1908) تقاطرَ النَّاسُ على ضيعتِهِ في وفودٍ كثيرةٍ مِنْ أنصارِهِ ومُريديهِ، للاحتِفالِ بعيدِهِ، وكانَ بينهُمْ وفودٌ مِنَ الدُّولِ الأوربيةِ ومِنْ أمريكا والهندِ واليابان! **لقد أصْبحَ تولستوي (رجُل العالمِ)** وتلقَّى في ذلِكَ الصَّباحِ أكثرَ منْ ألْفي برقيةٍ مِنْ روسيةِ وباقي أنْحاءِ الدُّنْيا، وصدرتِ الصُّحُفُ على اخْتلافِ نزعاتِها بِصورهِ وتمْجيدِهِ والثَّناء على عبقريَّتِهِ ومُؤلفاتِهِ وجِهادِهِ.

لقـــد أحـــاط النَّاس (**نبيَّ العصْرِ**) كَما سمَّوْهُ بِـــبالِغِ الحُـــبِّ والتقْديرِ، ولكِّنَ الرَّجُلَ العَجوزَ لمْ يجِدِ الرَّاحةَ والسعادةَ في بيْتِهِ، وكانَ يحملُ نفسهُ علـــى الصَّبْرِ ولكِنَّهُ في عام 1910 أصبح بيتُهُ جحـــيماً، لمـــا كان يلْقى فيهِ على يدِ زوجتِهِ مِنَ العذابِ، فقرَرَ أن يضعَ حدّاً لشقائِهِ بالفِرارِ.

وكـــان فِـــرارُهُ في جُنْحِ اللَّيْلِ نِهايةً لمأساةِ حياتِهِ الطَّويلةِ.

خاتمة المطاف

تولستوي فنّانٌ عبقريٌ ذو رسالة

كانَ النِّزاعُ بين الكونتس تولتسوي وزوجها مصـــدر شـــقاء الفيلسوف العبقريِّ في سنيِّ حياتِهِ الأخيرةِ: بعْد توْزيعِ ثروتِهِ على أوْلادِهِ أصـــبحَ تولستوي فقيراً زاهِداً راضِياً بالكفافِ وخُشـــونةِ العيْشِ، ولكِنَّ الأرْباحَ المُتزايدةَ من مؤلفاتـــه كانتْ تدُرُّ عليْهِ مبالِغَ وفيرة، وكانتْ زوجتُهُ تُجاهِدُ لِكيْ تحتفِظَ بِحُقوقِ الأسرةِ فيها، دون تحقيقِ رغْبةِ زوْجِها في التَّنازُلِ عنْ تِلْكَ الحُقوقِ للأُمةِ، وكانتْ بعضُ بناتِهِ والمُتعصِّبين لِمبادِئِهِ منْ تلاميذِهِ إلى جانِبِهِ في صِراعِهِ مع

زوْجــتـِهِ، وأرادَ تولســتوي أنْ يكتُبَ ذلِكَ في وصــيَّتِهِ، فثارتْ ثائِرةُ الزوْجةِ، وأقامتْ الدُّنْيا علــيْهِ، مِمّا اضْطَّرهُ إلى **تحريرِ وصيَّتِهِ سِرّاً،** فـــي غفلـــةٍ من مُراقبةِ الزوجةِ لهُ، وقدْ آلمهُ ذلِــكَ، وهُوَ الذي كانَ صريحاً في حياتِهِ، أنْ تضْطرَّهُ زوجتُهُ إلى عملٍ يتنكَّرُ فيهِ لعادتِهِ في الصَّراحةِ والمُجاهدةِ، وعلِمتِ الكونتسُ بِخبرِ الوصيَّةِ فجُنَّ جنونُها، وحاولتْ بِكُلِّ وسيلةٍ مِنْ وسائِلِ الحيلةِ أو العُنْفِ أنْ تصِلَ إلى الوصيةِ لــتُعدِمها، وانقسَــمَ الأبْناءُ فريقيْنِ، **وأصبحتْ حياةُ الفيْلسوفِ وهُوَ يدرُجُ نحْوَ قبْرِهِ عذاباً لا يُطاقُ!**

وفـــي ســـاعةٍ مـــتأخِّرةٍ مـــن ليْلِ السابِعِ والعشـــرين مِنْ تشرينَ الأوّلِ 1910 استيْقظَ الفيْلسوفُ المُعذَبُ لِيُفاجىء زوجتَهُ وهي تَبْحثُ بيْـــنَ أوْراقِـــهِ ومخْطوطاتِـــهِ، فـــثارتْ نفسُهُ اشْـــمئزازاً مِـــنْها، ثُمَّ انتظرَ حتى عادتْ إلى مخْدعِهـــا، فنهضَ من فِراشِهِ وارتدى ملابسهُ وحمـــل حـــذاءهُ ومشى على أطْرافِ قدميْه، وغـــادرَ المنْزلِ، بعدَ أنْ أيقظ ابنتَهُ الكسندرا وطبيـــبهُ وبعضَ تلاميذِهِ وأنبأهُمْ بعزْمِهِ على الرَّحـــيلِ، ليقْضيَ الأيام الأخيرةَ منْ حياتهِ في الهُـــدوءِ والوحْدةِ، وأفْضى إلى ابنتهِ بِما ينْوي أنْ يفْعـــلَ، وركـــبَ العربةَ مع طبيبهِ وبعْضِ

خدمـــهِ فـــي قلبِ الظلامِ إلى المحطَّةِ، ومنها ركِبَ القِطارَ مع طبيبِهِ نحْوَ **ديْر أوبتينا**، حيثُ أمْضى ليلتَهُ التاليةَ، وأرْسلَ برْقيةً إلى ابْنتِهِ في صـــباحِ 29 تشرين الأوّلِ بمُواصلةِ سفرهِ إلى مقـــرِّ أخـــتِهِ، **ليقيمَ لديْها قليلاً**، وقدْ لحقَتْ بهِ ابنتُهُ مع صاحبةٍ لها، **وأحسَّ الشيْخُ المسكينُ أنَّهُ مُطاردٌ** وأنَّ زوجتَهُ لنْ تلبثَ أن تهتدي إلى مكانِـــهِ، فقـــرَّرَ مُواصلةَ الرحْلةِ بعيداً، مع أنَّ حالـــتهُ الواهِـــنة لم تكُنْ تحتمِلُ مُتابعةَ السَّفرِ، وفـــي ليلـــتِهِ تلكَ **غادَرَ الشيْخُ المريضُ بيْتَ أخـــتِهِ، فـــي جوٍّ عاصِفٍ منَ المَطَرِ والثّلْجِ،** ليسْـــتقِلَّ مـــع ابنتِهِ وصديقتِها وطبيبه القِطارِ

الليْلـــيِّ نحْـــو (**رستوفَ**) ولكِنَّ الحُمَّى أنْهكتْ قـــواهُ، وزادتْ حرارةُ جسمِهِ المريضِ، فقرَّر المُســـافِرون الـــنُّزولَ **في أوَّلِ بلدةٍ يحُطُّ فيها القِطـــارُ**، وكانتْ (استابوفو) وهِيَ قريةٌ على بُعْــدِ خمســـينَ مـــيلاً مِنْ ياسنايا، **وقدَّمَ ناظِرُ المحطَّـــةِ غُـــرْفةً فـــي دارِهِ للشَّيْخِ المريضِ**، وانضَـــمَّ طبيـــبُ القريةِ إلى طبيبِ تولستوي، وقـــرَّرا معـــاً أنَّهُ مُصابٌ بالتِهابِ الرِئةِ، وبدأ الشـــيخُ يسعُلُ سُعالاً مُتَّصِلاً، وظهَرَ الدَّمُ في بُصـــاقِهِ، ولكنَّهُ كان دائِمَ التساؤلِ عنْ مُتابعةِ السَّـــفَرِ ويصيحُ في هذيانِهِ: "**ينْبغي أن نرْحلَ قبْلَ أنْ يُدرِكونا!**".

وفي اليومِ التالي تناقلَتْ أسلاكُ البرْقِ النَّبأ وأصبحتْ قريةُ استابوفور موضِعَ اهْتِمامِ العالمِ، وهُرعَ إليْها الأقارِبُ والأصْدِقاءُ ورجالُ الصَّحافةِ، وصارتْ أنباءُ الفيلسوفِ المُحتضِرِ تُنقلُ ساعةً فساعةً إلى عواصِمِ العالمِ!

وفي اليومِ السادسِ من تشرينَ الثّاني 1910 ساءتْ حالتُهُ وفقدَ وعيَهُ طوالَ النَّهارِ، وفي اليومِ التَّالي كان يلفِظُ أنْفاسَهُ الأخيرةَ، وقدْ سُمِحَ لزوْجتِهِ الكونتسِ أن تودِّعهُ، فجثتْ إلى جانِبِ سريرهِ لِتسألهُ الصَفْحَ والغُفْران!

وهكـــذا أغْمضَ العبقريُّ العظيمُ عينيْهِ في السَّـــابِعِ مـــن تشرينَ الثاني عام 1910، بعدَ حـــياةٍ طويلـــةٍ عامرةٍ بالعطاءِ الفنِّيِّ والفِكْريِّ الخالِدِ، والنِّضالِ المُستميتِ في تحقيقِ الرِّسالةِ الكبـــيرةِ التـــي عـــانى فـــي سبيلِها ما يُعانيهِ المُصْـــلِحونَ وأصْحابُ الرِّسالاتِ، في صبرٍ علـــى الأذى، واحتِمالٍ للاضْطِهادِ، إلى آخرِ لحْظةٍ في حياتِهِ.

المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات
بيروت ـ لبنان ـ ص. ب ٦٩١٨ / ١١
حلب ـ سوريا ـ ص. ب ٤١٥